الدفن سرا

يسعد الموتى

صادق فاروق

الدفن سرا

يسعد الموتى

رواية

فهرنهايت 451
للنشر والترجمة

صادق فاروق
الدفن سرا يسعد الموتى
ردمك: 978-9931-288-02-2
الايداع القانوني: ماي 2022

الناشر: فهرنهايت 451 للنشر والتوزيع
إيميل: edition.fahrenheit451@gmail.com
العنوان: وسط مدينة الجلفة.

جميع الحقوق محفوظة ©
لا يسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقيا أو إلكترونيا أو أية وسائط أخرى، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر.
تستثنى منه الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

فهرنهايت 451
للنشر والترجمة

تنبيهْ:

هَذه الرّواية في الأصْل مخْطُوطَة قَديمة، وجدتُها عند عجوزٍ صحَّافْ يُدعى سعْد الفُوربي في حيّ القصبة العتيق. أعطانِيهَا حزمةً من الأوراق الملفوفة، فحفظتُها منَ التَّلف والضَّياع. لذا فناسخُها مجهولٌ، وأجواؤها غامضة نوعًا ما. أغلب الظَّنْ أنَّها كُتبَتْ بأعواد الخيزرَانْ أو قلم القَصبْ، والصَّمْغ الذَّي يُصنَع بالودحة. حاولتُ نقلهاَ من كتَابة الألخميادو إلى العربيّة، بمساعدة أستاذٍ بجامعة الجزائر، الذي أوجّه له شكراً خاصًّا. وكِتَابَةُ الألخميادو تعتمد على نسْخ اللَّغة الرّومانية القشتَالية بأحرف عربيَّةٍ، وذلكَ بمبادلة كل حرف روماني قشتاليّ بحرف عربي. يعتبر الأقرب إليه من النَّاحية الصَّوتية في محاولةٍ للتوسُّط بين المنطُوقِ والمكتُوب. يعود عُمرُها لأكثر من أربعة قرونٍ، وقدْ أخترعَها المسلمون في الأندلُسْ، كي يتمكّنوا من ممارسة حيواتهم خفيةً عن محَاكم التَّفتيش.

بعد ثلاث سنواتٍ من العمل المُتواصِلْ، أعدتُ صيغةَ التَّرجمة بلغتي الخاصّة. كما أنيّ عوّضتُ بعض التعبيراتْ الممحوّةَ بسبب

التآكل بما يُناسبها. حارصاً على أنْ لا يتغيَّر المعْنى، فتحصّلتُ على متنِ الرّواية التي بين أيديكُم. وما شدَّ انتباهي، وأثارَ دخيلتي أنَّ بطلةَ المخطُوطة، كانتْ فتاةً تُدعى عزيزة، وجدُّها اسمُهُ سعْد الفوربي. في بادئ الأمر اعتقدتُ أنَّ هذا التَّشابه كانَ محضَ صدفةٍ فقط. لكنّي حينَما أنهيتُ من ترجمتها اكتشفتُ حقيقةً صادمةً، لا يقدر عقلٌ آدميٌّ على تصوّرها. ولقدْ اختلطَ عليَّ الأمر أكثرَ، حينماَ عدتُ لدكّان الصحّاف. سألْتُه عنْ التّشابه. فنفى أنْ يكُونَ له أيّ علاقَةٍ بالأمر. أخبرني بأنَّ حفيدتَه عزيزة هيَ من عثرتْ على الْمخْطُوطَة، وجلبتْها له. لقد كان هذا التَّطابقْ في الأسْماء ارهاصًا صعبًا، عشتُه في تلكَ الأيّام. ومدعاةً لأنْ أُقابلَها وأسألَها. وحينمَا التقيتُ بها في مقهى طُنطفيل، أخبرتُها بالأمر. لكنَّهَا سخرتْ منّي، ووَصفَتْني بالكَاتب الوَاهمْ.

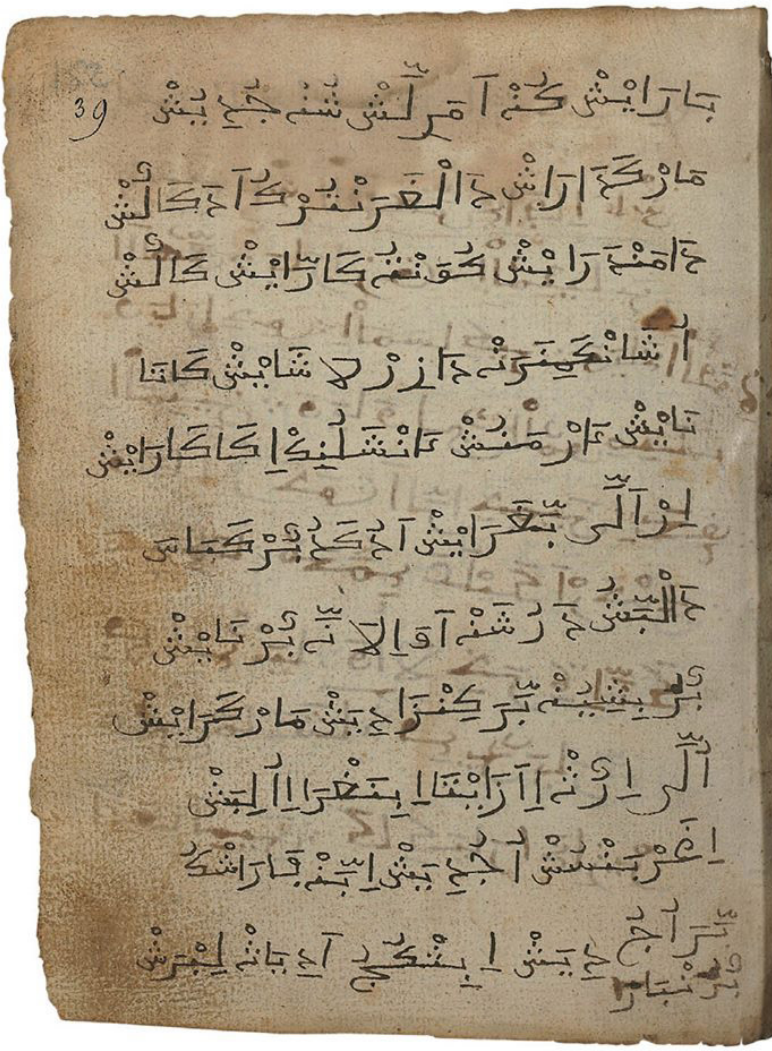

المخطوطة، كتابة الألخيميادو

الفَصْل الأوَّل

حكاية حَنّا

-I-

-المرآة يا بنيْتي تُصيب بالعمى.

هذه التوشيحة ليست مقام جهاركاه[1] الأندلسي.

بل هي الكلمة الأخيرة من حكاية حنّا[2] .

حكتْ لي حنّا قالتْ: «حينما دلف حسن باشا الخزناجي[3] إلى غرفة ابنته المدلّلة خداوج. وجدها تلفظ أنفاسها الأخيرة. لكنّها لم تنأ لحظة عن المرآة. ظلّت معانقة لها. تتحسّس الحواف المرصّعة

---

1 **جهاركاه** هو رابع المقامات، وأوّل مقامٍ في المقامات المولّدة وهو من المقامات التركية الأصل

2 **الجدة**

3 **حسن الخزناجي** مسئول خزانة المال للداي محمد بن عثمان ، وكان حسن الخزناجي له بنتان ، هما خداوج وفاطمة ، وفاطمة هي زوجة الداي حسين حاكم الجزائر العاصمة ، بينما خداوج ارتبط اسمها بهذا القصر.

بالجواهر والألماس. وكان قد أخبره آغا السبايهية قبلها وهو عائد من قصر الداي أنّ الانكشاريين تمرّدوا على الحكم الراشد.

لم يعرف ما الذي سيفعله لحظتَها. سوى أنّه ركض مذعورا صوبَ الأسطول البحري، خوفا من أن يصلوا قبله الى الميناء. وفي صدره لظى عظمى تلفحه. تتوغّل في الأقاصي. خيارات المسالك المغلوطة هي التي جعلت القرار أمامه صعبا ذلك اليوم.

كان عليه أن لا يجلبَ تلك المرآة الملعونة من خلف البحر. الذي ازداد سوادا في الأفق. كان يحثّ الخطى في ساحة السوق التي خلتْ فجأة. وكأنّه قد نُفخ ما في الصّور.

لم يكن هنالك آدميّ يدبُّ في أزقّة القصبة. تيقّنَ حينها أنّه ارتكب الخطيئة الكبرى. مشى آسفا مغتاظا، وفي حلقه غصّة حارّة، كادتْ تخنقه. ثمَّ أطلقَ صرخة عظيمة، وذلك قبل أن ينزل أدراج الميناء. تذكّرها وهي تشعّ داخل صندوق ألبسة الساتان الصيّنيّة، حينما كان على متن سفينته الحربيّة. تساءل حينها في نفسه عن صاحبها، وعن سبب وجودها بين مقتنياته، لكنّه لم يجد تفسيرا واضحا.

كانت الجواهر تتلألأ على حوافها، وفي الوقت نفسه كان الغموض يغلّفها. لم يهدأ روعه حتّى استدعى الرياس. استفسرَ عن الأمر، لكّنه لم يجد جوابا يشفي غليله. فاكتفى بالصمت حينها. غطّاها بكتّان ذهبيّ ناعم وجلبها معه إلى المحروسة[4]. بعدما ناداه صوت عميق

4 المحروسة. اسم الجزائر قديما

من داخله. «إنّها هبة السماء فلا تردّها». كانتْ فرحته غامرة آنذاك. بعدما فكَّر أنّه سيهديها إلى أميرته المدلّلة. كان ذلك قبل سنين.

أُغرمتْ ابنته خداوج بها وأصابها عشق انثال عليها كسحر عجيب. راحتْ تحّدق فيها ليلا نهارا، إلى درجة الإدمان الحقيقي. كانت تقول لأبيها إنّها ترى خلفها كلّ شطآن العالم. تنهل الرّوح والحياة من سطوة نورها. رابَه في كثير من الأحيان أنّها تستيقظ في الهزيع الأخير من الليل. تتزيّن بحليّها. تسرّح شعرها الحريري النّاعم. ثم تجعل المرآة قبالتَها. تبتسم لها كشمس مشعّة، وهي متدثرة بقطيفتها الحمراء.

كان يراقبها من ثقب الباب وقد أصابه الذعر منها. هكذا أصبح العاشق خائفا من هواه ومصدر زهوه الأبدي. وحينما كان يتسلّل إلى خلوتها خلسة، تلتفت إليه وتعانقه بشدّة. لو لم تجلبهَا لي يا أبي.. لكنتُ قد أحضرتُها بنفسي. فيتعجب ممّا أخبرته به. يحاول أن يجعلَها تتكلّم أكثر وتبوح عمَّا بداخلها. يريد أن يمسك بهذه الغواية التي أحاطتْ بها، لكنّ حذره من أن يخدشَ رقّتها. جعله يعدل عن ذلك.

مرَّ الزمن سريعا وبدأتْ تتهاوى كنّجم في سماء العالم الروحاني. رآها تذبل بين يديه، وهو الذي لم يفكرّ لحظة أنّها ستموت كباقي الآدميين. وترحل إلى العالم السفلي. كانتْ ذبيحة قلبه. مقدّسته منذ الأزل. وفي الليلةَ السابعة بعد عيد ميلادها. ابتلعتها الدّياجي، فصرختْ من قصرها صرخة سمعها كلّ من في القصبَة.

تجمّعوا عند جدران القصر الشاهق، ملوحيّن بأيديهم إلى شرفتها.

لكنّها كانت قد أصيبت بالعمى. اختفتْ سريعا تلك الأنوار الهلاليّة التي كانت تلتفّ بها. رفعتْ ذراعيها بتواز. اتّجهتْ إلى المرآة. هزّتها بقوّة ثمّ وضعتْ خدّها المورّد على سطحها. ورنتْ إلى موسيقاها وأحاسيسها العذبة. هل أنتِ معي ؟ كنتُ مشدودة اليك حدّ الهوس الذي لا يُقاوم. والآن عيناي قد ذبلتَا وانتهى الأمر. لم يعد بوسعي أن أحدّق فيك أكثر. ثمّ انهارتْ بالكليّة. بقيتْ متألّمة في فراشها أيّاما بعد الحادثة. زراها أطبّاء الدّاي بين الفينة والأخرى، ولكن لا حدث. إذْ عجزوا عن معرفة سبب إصابتها بالعمى، وسرّ كآبتها.

وحده حسن باشا كان يشعر بالأسرار وهي تتوغّل في داخله. دون أن ينبس بحرف واحد أو يتفوّه بقصّة أشبه بالأسطورة أو الهبل. لكنّه لم يقف مكتوف اليدين. بل كان يقعد جنبها طوال الوقت. يمسك المرآة بيديه الخشنتين. يقرّبها منها بعد منتصف الليل. يشعل قنديل الزيت. يعكسُه على سطحها جيئة وذهابا. كان يفعل ذلك علّه يجد حلّ اللّغز الذي اختمر بعقله، منذ أن جلبها من عمق البحر.

في ذلك الوقت المتأخرّ، كانتْ عيون الخدم خلف ثقب الباب تتداول على ذلك المشهد الغريب. حركات حسن باشا الرجل الرزين الصلب، وهو يقفز فوق سريرها حاملا المرآة، عاكسا أضواء النّور القنديلية، من كلّ زوايا الغرفة. بل إنّه أحاطها بمجوهراتها وقلادتها الفريدة، التي صنعها مولكوز اليهودي البارع. ثبّت المرآة بشكل عموديّ أمام قدميها النّاعمتين. راح ينتظر حدوث شيء يجهله. بزغ الفجر فتأكّد أنّه لا يعرف دروب اليقين. لا يفقه من مكامن الأرواح

شيئا. وأنَّ عليه التوقّف عن هذه الحركات المريبة. بل إنَّ عليه الدّعاء ودعوة كلّ الدراويش وحفظة القرآن إلى غرفتها.

فعلَ ذلك في صباح اليوم الموالي. كرّرت جدران القصبة أصوات المريدين والمستغفرين. لكنَّ ذلك لم يُجد نفعا. كان ألمها ناقعا، وبؤسها كهالة نار حارقة ألهبتْ محيط القصر. وتهامس اليهود سرّا، بأنّ سبائك الذهب المخبّأة في صندوقها كان سببا في عماها.

قبل موعد الصّلاة انتشرَ من المئذنة العظيمة خبر تشييع الأميرة خداوج. ملأ أفضية الفراغ الموحشة. كانت الشمس تشبه حبّة البرتقال وهي تكاد تسقط في البحر. وتلوّنت سماء المدينة بحمرتها.

أمّا الضوء الأبيض النقيّ فتسللّ إلى الكوّات الضيّقة، كي يختبئ إلى أجل مسمّى. وفي الصورة المعاكسة تراءت الأمواج المتلاطمة بزبدها الأبيض كأنّها لسان عفريت، وهو يسحب المحروسة إلى غياهب الظَّلام. بل انّ تلك الهضبةَ المرتفعة تكاد تنزلق. تلتطم بالصخور. بدا خلف ذلك المشهد السريالي العجيب، قارب حسن خزناشي وهو يجذّف بكلّ ما أوتي من قوّة بذراعيه المرتعدتين.

كان ينفذ من فتحات الموج الغاضب، كأنّه يصارعه. يلهث. يخلع زيّه العسكريّ. يرميه قطعة قطعة، كي تلتهمها وحوش الظَّلام الضارية. وتبعته قوارب الجند والرّياس على مقربة منه، محاولين أن يقنعوه بالعدول عمَّا هو مقبل عليه.

لا شكّ في أنّه كان قانطا. في شدّة الجزع. أمّا أختها فاطمة فكانت

ملتصقة بصندوقها، لم تفارقه لحظة. تتبع حشود المورسكيين[5] في جنازة مهيبة. خاصّة بعدما شاع خبر وفاتها إلى ما وراء البحر في زمن قصير. فاصطفّت أشرعة البلدان الصديقة والعدوّة على السواء. يقدّمون التعازي، ويشاركون المحروسة[6] مُصابها الجلل.

عند وفاتها نسيَ حسن باشا أن يغطّيَ المرآة. كانت هذه خطيئته الثانية. خرج راكضا كي يلحقَ أولئك المتمردين ونسيَ روح ابنته الضائعة. التي احتُجزتْ خلف المرآة ولم تصعد إلى السماء، كما ظنَّ هو. لقد كانت المرايا تُغّطى في العهد الفيكتوري عند وفاة أيَّ شخص وقبل جنازته، حتّى لا تحتجز الروح في إحداها. حتّى الخدم لم يتنبّهوا لذلك.

الخادمة العجوز نفيسة وضعتْ المرآة تحت سرير الأميرة، بعد أن ازداد عدد الزائرين إلى غرفتها. وقد سُرقت من مجهول أثناء تلك الفوضى العارمة. كان حسن باشا يودّ تكسيرها ورميها في البحر، لأنّها جلبتْ لعائلته الدمار. لكنّه لم يجدها، بعد بحث طويل في كلّ أرجاء القصر. فاتّهم الخدم حينها بسرقتها وخيانة الأمانة، بعد أن ثارت ثورته.

بلغ به الجنون أن يفتّش مراقدهم. لكّن لا أثر لها. لقد اختفتْ واختفى السرّ معها. قال في نفسه إنّ اصابتَها بالعمى، كان بسبب

---

5 **الموريسكيون** أو **الموريسكوس** بالقشتالية هم المسلمون الذين بقوا في إسبانيا تحت الحكم المسيحي بعد سقوط المملكة الإسلامية وخُيروا بين اعتناق المسيحية أو ترك أسبانيا. وقد تم تهجيرهم نحو دول شمال أفريقيا وتجاه الشام وتركيا بعد سقوط الأندلس.

6 **المحروسة**. اسم من أسماء مدينة الجزائر

ولعها بالمرآة وإنّ موتها كان بسبب عدم تصديقها، بأنّها لن تستطيعَ رؤية المرآة مجّددا. مالَ في زاوية تفكيره أنّها ربمّا انتحرتْ، ولكنّه لم يخبر أحدا.

بل قال إنّ موتها كان بسبب مرض أصابها. أغلقَ وسوسته بالصّلاة. ردَّدَ أوراد الصالحين، وسلّم أمره الى اللّه. الواقع أنّه كذب بشأنها، حينما قال في مجلس الداي، إنّه اشتراها من رجل صيني، بارع في الصقل والنّقش على الزجاج. اختلقَ قصّة عجيبة مع الرجل القصير ذي الشاربين الطويلين. قال إنّه كان يودّ شراء ألبسة الساتان منه. وقد رآها معلّقة في دكانه، فانبهرَ بشكلها ولمعانها الملفت للأنظار. فدخلَ في مساومات معه. وقد أعطاه سبيكتين من الذهب مقابلها. بالكاد صدّق الرجل هذا العطاء السخيّ، الذي لم يحلم به يوما.

بعد قرنين من الزمن وصل اليهودي ميشيل كوهين بكري إلى المحروسة رفقة عائلته، كان عظيم الجسم. عيناه بارزتان بشكل غير عادي. حتّى أن الإنسان ليخاف أن يطيل التحديق فيهما. وقد قدم من مدينة جنوة الإيطاليّة، بعد أن ربح في صفقات تجاريّة كبيرة. كان ذلك واضحا من سفينته المعبّأة بأجود الملابس وأرقى العطور، التي كان يركّز عليها تجارته. صرّح في أوّل مرّة وطأتْ قدمه فيها الميناء بأنّه قد تعاقد مع عباقرة العطّارين في أوروبا، وأنّه جلب معه قارورات نادرة، كهدايا للدَّاي و للرياس.

مشتْ خلفه حفيدته عزيزة، التي بدتْ فائقة الجمال، بخطى متباطئة، والخادمتان خلفها. جوليان كانت ترفع أطراف الفستان

المزركش، التي كانت تلبسه عزيزة، وتمنعه من ملامسة الأرضيّة الموحلة. أمّا الخادمة الثانيّة إميلي فكانت تحمل حقيبة جلديّة. فيها مراهم للتجميل وعلب عطور مختلفة.

بعد أن جابَ كوهين المدينة باحثا عن منزل. استقرّ به المقام في قصر الأميرة خداوج، فاستأجره بعد أن أُغرمت به عزيزة.

لم تمرَّ إلاّ أيام قليلة، حتىّ وجدَ الخدم المرآة التي اختفتْ قرابة قرنين من الزمن، في الخزانة الخشبيّة، التي كانت تقابل السرير. خلف ساتر مثبّت في الجدار الداخلي، وكان اكتشافا مذهلا، لكلّ من في القصر.

تجمّع الوافدون الجدد، مندهشين من سحرها وألقها. يتحسّسون سطحها وحواشيها المرصّعة. أما السيّد كوهين، فقد وقفَ وقتها بحزم في الغرفة، وقد أعلن سطوة غضبه، محذّرا الجميع بأن لا يسرّبوا خبرها خارج القصر. وإلاّ قطّع رقابهم ونكّل بهم. إنّها مرآة من العهد البائد... سأجني من ورائها مالا كثيرا. سأذهب بها إلى الملك الايطالي...وسأبيعها له بألاف القطع الذهبيّة... سأطلق عليها اسم المرآة العثمانيّة العجيبة. هكذا قال في نفسه، وأطلق قهقهة شاهقة، وسط دهشة الخادمة جوليان. ثم ابتسم بمكر وحيلة وغادر مسرعا.

أمّا عزيزة فقد أسرتْ لبَّها. عرضتْ فساتينها واحدا تلو الآخر، محدّقة بمرآتها العجيبة التي وجدتها للتوّ. كانت في كلّ مرة تبدّل فيها، تقف عارية. تتقدّم بخطوتين رشيقتين نحوها. تطلق نفسا

ساخنا على جزء منها، ثم تطبق شفتيها على سطحها، وكأنّها لا تصدّق أنّها بهذا الجمال الأخّاذ. قالتْ لجوليان: «أوّل مرّة أدرك أنّني فاتنة يا جوليان، باستطاعتي الإطاحة بأعظم الرجال المورسكيين هنا. لن تتصوّري مدى سعادتي وأنا أقابل هذه المرآة. إنّها غريبة يا جوليان».

في الليلة السابعة من ظهورها. انتشر صراخ في الطابق الأرضي من القصر، عند النّافورة التي كانت تتوسّط صحن القصر. آنذاك وُجدت الخادمة اميلا غارقة وسط بركة من الدماء، ذات اللون الأحمر القاني. فسّر كوهين موتها بارتطام رأسها بالأرض، وأسرع إلى احتواء الأمر قبل أن تستيقظ حفيدته المدلّلة عزيزة، فتُصاب بالذعر والفزع.

أمرَ الخدم بأن يضعوا الجثّة في كيس، ويرموه في بقعة نائية من البحر. كما أمرهم بالتكتّم عن ما جرى. خاصّة عزيزة. التي أخبروها فيما بعد، أنّ خادمتها الوفيّة اميلا، قد غادرتْ ليلة البارحة مسرعة، بعد إبلاغها بخبر وفاة أمّها في جنوب ايطاليا، وأنّها اعتذرتْ منها، لأنّها لم تستطيع توديعها.

لكنّ الأمر لم يتوّقف عند هذا الحدّ. فبعدها بيومين ركضت عزيزة، فارّة من غرفة الأميرة خداوخ، وهي تصرخ بأعلى صوتها. نزلت السلالم القصيرة وكادتْ ترمي بنفسها في صحن القصر، لولا تدخّل الخدم.

قالتْ حينها إنّها رأت فتاةً بشعر أسود طويل، تخرج من المرآة. وأنّها واقفة عند سريرها ولم تبرحه منذ أكثر من ساعة. راحتْ تترجّى جدّها، بأن يغادروا القصر دون رجعة، ولكنّه هدّأها. طلبَ من جوليان

النوم معها، والخدم أن يقفوا عند باب غرفتها. وأردف بأنّها مجرّد تخيّلات، وأنّ التّعب يُظهر صورا، يعجز عن فهمها العقل.

أمّا ابنُه مردوخاي فقد رأى شبح امرأة فائقة الجمال. تلبس لباسا أندلسيا فضفاضا. تصعد إلى الطابق الأوّل من القصر، وحينما ناداها. التفتْ إليه، وكان النّور ينبثق من وجهها السّاطع. فرفرفَ قلبه كالعصفور الذي بلّله الماء الزلال. ثنى ركبتيه أمامها، يتغزّل بمفاتنها الطافحة، واتّقدتْ نشوته المترعة في لحظة صفاء ربّانية. لم يشهدها طوال فترات حياته.

لمّا رآه كوهين بتلك الحالة المزرية. يفتعل حركات مريبة. راعَه ذلك. تأخرَّ خطوات إلى الخلف، وقد أصابه ذلك الوهم الغامض، الذي يودي بصاحبه إلى الهلاك. انفجرت الوساوس في داخله كالثورة الملتهبة، وراحت تهدأ وتهجع تارة، وتمور وتفور تارة أخرى.

لم يدرِ ما الذي أصابَ أسرتَه؟ تيقّن حينها أنَّ خوفه المبطّن الذي شعر به في بادئ الأمر، لم يكن مجرّد تهويم. بل إنَّ سرّا من الزمن الغابر مازال عالقا. فما كان عليه إلاّ أن خطى متثاقلا. وهو يتأمّل سقف القصر الزجاجي، الذي كان مفتوحا على السماء، وهي تتلألأ بالنجوم.

صباح اليوم الموالي، سقط ابنه مردوخاي طريح الفراش، لا يحرّك طرفا ولا يرمش عينا. تحوّل إلى لوح خشبيّ تتلقّفه أهوال الزمن الغابر. بل إنَّ لسانه عُقد، ولم يعد باستطاعته تحريكه. كان يطبق شفتيه اليابستين ويفتحهما طوال الوقت. دون أن يفهم الطبيب الذي أرسله

الداي خصّيصا له، شيئا عن حالته المزرية. واستمر الوضع على ما هو عليه قرابة أسبوع كامل.

وفي ليلة من الليالي شاهد كوهين بنفسه، شبح خدواج العمياء وهو قابع أمام المرآة. لم ير ملامحها جيّدا بسبب الأضواء الباهتة للقنديل. بدتْ وكأنّها في شدّة الحنق. يتحرّك ظلّها يمينا وشمالا، وهي تحدّق في المرآة. التفتَ إلى حفيدته عزيزة فوجدها تغطّ في نوم عميق. فلم يكن منه إلاّ أن أمسك بالكرسيّ الحديدي. حاولَ مباغتة الشبح من الخلف بأنْ يضربه بالكرسيّ على قفاه، لكنّه تدحرج في الهواء، وكأنّ أيادي خفيّة دفعته. كسّر الكوّة الزجاجيّة المطلّة على صحن المنزل، وانتشرت قطع الزجاج والخشب على الأرض. لكنّه لم يتوقّف عند ذلك الحد، بل هاج وثار وكأنّه أصيب بشبق وحشي لا خلاص منه.

أمّا عزيزة فقد ارتعبتْ من ذلك المشهد. ركضتْ صوبَ الخارج، بعدما التحقَ الخدم بالغرفة قبل استفحال الوضع. راح كوهين يصرخ. لقد دافعتُ عنها باستماته...لن يستطيع أحد هزيمة ذكائي الوقّاد. لكنّه حينما استفاق وهدأتْ الحرائق التي نشبتْ في دواخله. وضع المرآة في كيس وخرج في جوف الليل. يتبعه خدمه صوب الميناء. كأنّهم أقزام صغار وهم يلهثون خلفه. التفُّوا به وهو يقرأ ورقة صفراء قديمة من الكتاب المقدّس على المرآة. ثم ربطَها بحجر كبير، ورماها في عرض البحر».

الفَصْل الثَّاني

بداية الإرهاصْ

-II-

بدتْ الشمس بسحنتها الشائهة، كأنّها قد استفاقت من كابوس مريع. متآكلة الأطراف. أشعّتها باهتة جدّا. رغم ذلك، كان الضوء ينبثق منها، كعين منهمرة بالسّحر. آنذاك اهتزّ رأسي فجأة. كان ثمّة آدميون نائمون قرب الحواجز العملاقة. وكلب أبيض يبول بالقرب من أحد الدكاكين المقفلة. يلتفتُ يمينا وشمالا. يتمسّح بالجدران تارة. ينبشُ بأظافره الأرض تارة أخرى.

كانت المرّة الأولى التي أبيتُ فيها في الشارع، بعد ليلة مضنية جدّا. أتذكرّ أنيّ عدتُ في ساعة متأخّرة إلى المنزل، منزلُنا الذي يقبع وسط شبكة من المنازل المبنية على منحدر سحيق تدعى القصبة[7].

---

7 **قصبة الجزائر**، المعروفة باسم القصبة، تتوافق مع مدينة الجزائر القديمة أو المدينة العتيقة، عاصمة الجزائر، والتي تعتبر من مواقع التراث العالمي لليونسكو منذ عام 1992. وتقع إداريا في بلدية القصبة داخل ولاية الجزائر.

جلبتُ بطانية وبعض الأفرشة المهترئة. اتّجهتُ حيث يتجمّع الآدميون . كنتُ أعلم أنَّ هذا الاعتصام سيستمرّ زمنا طويلا، لذلك خصّصت مكانا لي، كي أنام فيه بجانب البقيّة.

كان ثمّة صوت ينساب مع هزيز الريح، نفسُه الصوتُ راح يتمطّى والكلّ يغّطون في نوم عميق. انتشلني من فرشتي كالريشة. انتزعَ البطّانية الملفوفة بجسدي. خلعتُ ملابسي كلّها كي أتخلّص من براثن ذلك العذاب المُفاجئ. مشيتُ عاريةً، حافية على أصابع قدميَّ كالمهلوسة. رفعتُ ذراعيَّ بتواز إلى الأمام، واهتزَّ معهما نهداي المذعوران. نبضات قلبي تزاحمت والألم سرى في جسدي كسائل مجنون، يريد أن يغرقني به.

كنتُ أعرف أنّها هي ولا أحد سواها. تلك طقوسها وقسوتها حينما تريد أن تواجهني. واصلتُ في التوجّه إليها. أسرعتُ الخطو قبل أن تسيطر عليَّ، قبل أن أنسى أنيّ أريد قتلها، لكنّي فشلتُ. لم أقو على فعل شيء بعد أن رأيتُها في صورتها الحقيقة. كانت ضئيلة الحجم، ضبابية اللّون تشبه مادة جيلاتينية مبهرة. تحمل نهديها الكبيرين على كتفيها. في بادئ الأمر لم أصدّق ما رأيته. أغمضتُ عينيَّ محاولة أن أصحو من تخيّلاتي المترعة بالنشوة. هدّأتُ من مخاوفي المبطّنة وحينما فتحتهُما مجدّدا، تهلّل وجهها كالنّور في زاوية نائية من الزقاق. راحتْ تتنطّط وفي وسط جسمها فراغات طريّة.

لم أعرف لحظتَها كيف ساقني خوفي الغريزي إليها، وكيف تعقّبتُها ومشاعري متّقدة بالرغبة. امتزجتْ حقيقة رؤياها بالوهم، فلم أعد

أفصل بينهما. آنذاك تعقّبتُها بحذر شديد. صعدنا السلالم متّجهين إلى جهة باب عزّون. مررنا بكثير من الشبابيك الحديدية العالية، وكأنّنا لصّان ينتظران فرصة مواتية للانقضاض، ولكن علام؟ لا يوجد شيء غير الخواء والتّيه، ما تراها تريد وعن أيّ شيء تبحث؟ شدّتْني أثناء مسيري الكوّة المضيئة في منزل الروخو. الصحفي الذي التقيتُه في مقهى طُنطفيل.

كان صدى القهقهة العالية يستطير من منزله كأنّه كابوس فضيع. ربّاه ما الذي أصابني؟ تسمّرتُ أمام منزله مشيرة إلى الكوّة بإصبعي. كنتُ أنادي تلك الكائنة الهُلاَميّة التي أتعقّبها. التفتَتْ تسخر بضحكة بغيضة... تَرْق. تَرْق وكأنّها تقول لي. أقتِله يا عزيزة.

كان جسدها يشعّ بنور وامض، وأنا أتبعها إلى أعالي دزاير[8]. إلى باب الجديد كانتْ وجهتُها. كنتُ أشعر أنّ الوقت يمضي بسرعة فائقة. ماذا تُريد ترْقُو[9] منّي؟ ولمَ أنا خانعة هكذا مستسلمة؟

كان الأمر أشبه بالحمّى الشائهة بالنسبة لي. وللحظة رنوت إلى صوت طرق عظيم وضحك هستيري في الوقت نفسه. مهلا أين هي؟ أين استترتْ؟ ركضتُ صوب الصوت بغباء شديد، لم أكن أعرف ما الذي حدث؟ وكيف تحرّكتْ بسرعة قصوى مارّة السقيفة.
رأيتُها تطرقُ البيبان بقوّة ثمّ تُسرع فارّة. وكأنّها تُعلّمني طقوس عالم

8 الاسم الجديد للجزائر العاصمة.

9 غولة لها نهدين كبيرين. تعيش في الصّحاري. تدغدغ الانسان حتّى الموت.

جديد. سألتُها صارخة في وجهها: «ما الذي دهاك؟ وما بك تركضين بين الأزقّة كالمجنونة».

كطفلة صغيرة كانتْ تُغنّي بلحن يشعل الأشجان، محاولة إخافتي وإثارة الجلبة أثناء حركتها. وحينما تزداد حدّة الصوت، يستحيل إلى صوت قطّ برّي جائع. كنتُ أقلّدها في ذلك. لقد كنتُ آدميّة مهزوزة شريدة. بعد أن جرفني ذلك الإحساس المجهول. لكنّي أقسم بالعالمين العلوي والسفلي أنّه ظهر قطّ رمادي وراح يتبعُنا، ثمّ ظهر قّط ثاني عملاق ثم تضاعف عددهم، وقد اشرأبتْ أعناقهم، مصدرين وردا من كلمات غريبة.

كنتُ أهمس في دخيلتي بسخريّة لم أعهدها في نفسي. هل هم السكّان الأصليّون للقصبة؟ مثل هذا الجيش من الحيوانات قادر على احتلال القصبة في بضع دقائق فقط. مواؤهم كان متلاحما، أشبه بالنغم الموسيقي الحزين. أحجامهم كانتْ متفاوتة بشكل خيالي. واحد بحجم صرصور لا أكثر، وقطّة نحيفة بحجم عصفور، وهكذا تتباين الأشكال حتّى الوصول إلى قط أسود عملاق، كان جاثيا في المقدّمة.

جلستْ ترْقُو بينهم. راحتْ تُبحلق فيهم واحدا تلو الآخر، وهي تسرّ لهم إحساسا مجهولا. تتمسّح بأطرافها على رؤوسهم. لكنّ المُواء لم يتوقّف. برطمت ترْقُو. أصدرتْ مجّددا ترْقْ... ترْقْ. استطال حجمها إلى السماء وكأنّها كانت تنتوي أن تُطبق عليهم .تخسف بهم الأرض بغتة. تشبّثوا بأطرافها. حكوا لها عن سرّ الخرس الذي يغلّف ألسنتهم.

تلوّوا واشتكوا من أطرافهم وأنّهم لا يقدرون على الوقوف مثل الآدميين. لم ترن اليهم في البداية. تكأكؤوا وتجمّعوا في دوائر متقاطعة. ترقرقتْ عيونهم. غنّوا بشجن أغنية الوادع الأخير. تراجعتْ ترْقُو في الأخير. تضاءلتْ وخضعت لعيونهم الصغيرة السّاحرة.

في لحظة ما كان لا بدّ من الاعتراف لها بتلك المشاعر الانسانيّة النبيلة. اتّجاه الحيوانات البريئة، التي ربمّا تكون متضوّرة جوعا، وكأنّها كانتْ تشكو لها أشياء كثيرة لم أفهمها. وفي فجاءة غامضة وقع نظري على ملامح قطّة مألوفة. كانتُ تشبه أرملة الضابط حمدْla loi ، كما يناديه الجميع. التي كانتْ تسكن بمقربة من منزلنا. عينان جاحظتان وأنف مدبّب ووجه مستدير وأذنان بارزتان. وسط تلك الظلمة الجليلة اقتربتُ منها بطريقة آلية، أمسكتُ برأسها الصغير. نعم كانتْ هي. أقسم بكلّ الديانات أنّها عيشة أرملة الضابط حمدْ la loi. لكنَّ جلدها كان سميكا جدّا، يشبه الكاويتشو الخشن.

كنتُ أكلّمُها وفريستي ترتعد. عيشة ما الذي أتي بك إلى هنا؟ لم تأبه لي وراحت تفرك أنفها المدبّب بأطراف رجليها...كنتُ أظنّ أنيّ أمشي وحيدة، لكنّي فوُجئتُ بالكثير من القطط تتحرّك بمقربة منّي. أحدهم كاد يسقطني أرضا بعدما ارتطمتْ رجلي برأسه العملاق.

توقّفتْ ترْقُو عند بئر باب الجديد. راحتْ تلعق الماء المنهمر من العين والقطط تقلّدها في ذلك. تجمعه بأطرافها التي لم أستطع عدّها. نهداها الشفّافتان كانتا مذهلتين، وذيلها القصير الحلزوني كان يستطيل ويتقلّص بصورة عجيبة.

رمقتني بخزرة مُفاجئة وكأنّها تريد الكشف عن سريرتها، لكنّها لم تستطعْ. كنتُ أنتظر أن تكلّمني، لكنّها أحجمتْ. صدّتْ عنّي وواصلتْ الضرب بأطرافها على الأرض. تغذّتْ على أرواح الآدميين الذين دغدغتهُم وما زالتْ لم تكتف بعد. كانت تلاحقهم حيثما حلّوا. تُضحكهم حتّى يتشدّقون. أعلموها أنّهم نالوا منها كفايتهم، لكنّها لم تتوقّف قط.

قالوا لها. إنّنا ضحكنا كثيرا. رمقوها بنظرات متفحّصة، فباغتتهم بالدغدغة مجدّدا، وطاردتهم في أزقّة القصبة. دلفتْ إلى دكاكينهم ومنازلهم بحثا عنهم. جفّتْ أحلاقهم وأصابهم الإعياء، فبركتْ عليهم مدغدغة حتّى الموت. حينئذ أدركوا أنّ الأمر كان صارما. لم يكن سخرية ولا نكات.

بل خصومة حقيقة. وكانوا وقتها يمتنعون عنها. يتملصّون من مواجهتها في البداية. يتعذّرون بحجج واهية. تبرطم ترْقُو ويستطيل حجمها إلى السماء. فيصيبهم الفزع، ويخضعون لمكيدتها.

تحسّستني خلفها، لكنّها لم تُعرني أيَّ اهتمام. واصلتْ لعقها الماء دون توقّف. الماء هو المجهول الذي احتواها. بلّل شفاهها اليابسة. هاجمته بضراوة كي تفتك به، كي تحرمه من انسكابه المتناسق، لكنّها باءت بالفشل. لملمت ضفائرها المزخرفة.

أخذها الحنين إلى غول الصحراء، الذي تركته خلفها، يتمرّغ في التراب الرامض. انتشتْ وجدًا. تقلّص جيدها. اندفعتْ صوب الماء

بعنف شديد. دلقته على جسدها الهزيل. وشهقتْ بأنفاس مكتومة.

لقد شيفتْ ترْقُو منذ زمن من الصحراويين القدامى. الخلاء كان موطنها الأصلي. قيل إنّ غول الصحراء عشقها بشدّة. عرض عليها أن تأتيَ معه إلى المدينة، وأن تتخلّص من الجفاف والتيه والضياع. لكنّها رفضتْ ذلك. ركضت نائية عنه. توغّلت في أعماق الصحراء، ولم يستطع اللّحاق بها. كانت سريعة جدّا ومراوغة. انكسر الغول ساعتها واغتاظ. راح يتتبّع الصحراويين الرحّل، يفزعهم تارة. ينكّل بهم تارة أخرى.

يقطّع أيدي الصبايا وأرجلهنَ. ينشرها في الخلاء. كان يعتقد أنّها الفدية التي تعيد له معشوقته. في الظلام الدامس يخلو إلى اللّحظة التي جمعته بها. يعيد ترتيبها. يصرخ بشدّة غو..غو. يسمعه الصحراويون، فيحزمون أمتعتهم، يخلعون الأوتاد من الخيم ويرحلون. فيلاحقهم في الجبال والأودية والقفار البعيدة.

تأكّدوا حينها أنّ حركته أسرع منهم، وأنّه لا مناص من الفرار إلى الأبد. كانوا قبلها قد أنقصوا من نهود صباياهم. كي يُخفوا بروزها من الثياب. ومحو أيّ تشابه بينهنَ وبين ترْقُو. حلقوا شعورهم الطويلة المنسدلة أيضا. اكتشفوا ذلك حينما قالت لهم امرأة ملّثمة، اقتحمت مجلس الرجال بشجاعة كبيرة: كلّ الصبايا اللّواتي اختطفهنّ كنَّ ناهدات و شعورهن طويلة. فكيف لم تلحظوا ذلك؟

يُقال إنَّ ترْقُو أخبرتْه قبل أن تغادر، بأنّها تعشق الأجساد السميكة

المغلّفة بالغبار، وأنّها ستبقَى وفيّة لموطنها الأصلي. فمن الذي حوّلها عن شريعتها الأولى. وكيف صارت متعطّشة لقطرات الماء، وللأزقّة الضيّقة. وللضجيج الحار.

حتّى الماء بدا مختلفا مع منظر الخيط الأبيض الذي تراءى في السماء والزمن متوقّف لا يتحرّك ولا يعود إلى الخلف. سألتُها بصوت متهدّج مليء بالتردّد. لماذا دغْدغتهم حتّى الموت؟ لكنّها لم تُجب وواصلتْ صمتها، وارتفع صوت عشقها لقطرات الماء.

كأنّ عطشها كان يزداد مع مرور الوقتُ. كان عنقها مشرئبا وفمها متشقّق من العطش، وكنتُ أنا على أعتاب عزلتها الشاهقة أترجّاها، أن تشرعَ لي ملكوتها الخاصّ، كي أتصالح معها. التخدير ختم على قلبي بالضعف والكسل، والحرّ اللّافح جعلني أرتجف عند ذلك.

جلدي مغلّف بعرق مترب، وروحي مضطرمة تترقّب غضبها الغريزي المفاجئ. لكن بعد قليل سترحل وتتعذّر الرؤية كما هي صافية الآن، وتروح مجدّدا إلى عزلتها ويحوطني القلق إلى الأبد. ها هي الحياة تدبّ في داخلي ويتجدّد مسعاي في رؤيتها. جثمتْ ترْقُو على الأرض، تصنّعت الشعور بالندم والحسرة، قالتْ لي حينها إنَّني مخطئة فيما أعتقد، وإنّها ستُلاقيني خلال الليل عند نافورة المنزل، وزمّتْ شفتيها بعدها مهابة أن تظهر حقيقتها عارية كما هي.

توقفّت العين عن الانهمار. ارتفعتْ الجلبة من حولي رويدا رويدا حتّى علتْ السماء. وأنا واقفة متصلبّة كصنم عديم الملامح. آنذاك

كان صوتُ الآدميين قد غلّف المكان، لقد اصطفّوا في طابور طويل لملء أسقيتهم. انتشرتْ منهم رائحة نتنة. علاوة على القاذورات المرميّة هنا وهناك. تحوّل المكان إلى مستنقع كبير. نسيتُ كالبلهاء أنيّ وجدتُ النافورة ناضبة منذ أيام خلتْ، وأنيّ لم أستحم. كنت أخزّن الماء في المواعين ولم أنتبه لذلك. الماء هو من جعل الهلع يتغلغل في أعماقهم. لقد تجمّعوا وتبادلوا ألفاظا نابية وشتائم لاذعة.

لا تقترب منّي أنتَ متسّخ. هكذا صرختْ أحداهنَ في وجه آدمي يلتصق بها في الصّف. وهو بدوره دفعها بقوّة، حتّى سقطتْ خارجه. قائلا: ابتعدي عنّي أيتّها المتعفّنة. حاولت أن تعود الى مكانها، تقدّم بسرعة والتصق بالشيخ الآدمي الذي أمامه.

لم يعد لك مكان بيننا أيّتها العاهرة. هكذا نطق آدمي ضئيل الجسم من الأمام كان يتابع الخصومة. أوشك الشجار على التطوّر، بدخول أطراف أخرى تضامنتْ مع المرأة الآدمية. انطلق حمار أشهب من الخلف، وغطّى المكان بالخزّان الدائري الكبير، الذي كان مثبّتا على ظهره. ثمّ تبعه آدمي أربعيني مفلطح الوجه. كان يظهر أنّه صاحبه. سدّد نظراته نحو الآدميين قائلا: أحمّل الحاكم الأعلى مسؤولية ما يحدث لكم. الذي تمادى في قراراته التعسفيّة. ثمَّ طلب منهم السماح له بملء خزّانه، تحسّبا لأيّ طارئ. اقترح عليهم تخزين الماء واستعماله باقتصاد، كأن يُعطى لكلّ فرد يوميا قارورة ماء واحدة للشرب وأخرى للغسيل.

لم يكد يُنهي حتّى سمعنا صوتاً خشناً من المقدّمةّ. راح يدوّي في

آذاننا. ردّدته جدران القصبة ضاحكة مستهترة. أريد أن أمارس طقوس العبادة وأحتاج الكثير من الماء، يجب أن أكون طاهرا كي أدعوا اللّه لكم أن يرفعَ عنكم هذا العذاب الواصب. أنا إمام القصبة ومن حقّي ذلك. بدتْ ملامح الآدميين مكفهرّة واجمة، كانوا على استعداد للنّيل منه. كلّنا نعرف اللّه وهو عادل جدّا. لن تكون واسطة بيننا وبينه. بدا أنانيا جدّا.

أحاطوه بنظرات متكالبة. جعلتُه يتراجع إلى الخلف. ينكص على عقبيه بالسرعة القصوى، دون أن ينبس بكلمة واحدة. والملفت للنظر أنّ مسجد كتشاوة كان قد أُغلق بأقفال غليظة. عزف الآدميون عن الصلاة فيه منذ زمن طويل، حتّى المسيحيون واليهود لم نرهم يمارسون شعائرهم الدينية قط. خلعوا ألبستهم المميّزة تدريجيا وكأنّ الربّ صار لا يعنيهم. ليس لأنّهم لا يؤمنون به مطلقا، بل لأنّ الظروف القاسية، صيّرتهم إلى جيش من الآلات. أضاع كلّ واحد فيهم كينونته وهو في طريق البحث عن العودة. هذا ما كنتُ أؤمن به على الأقل.

ارتفعتْ الجلبة من حولي.

- لماذا أراكم جبُنتم؟ اهجموا على الحواجز.

-سنتعفّن كالضفادع، وستنتشر روائح كريهة جدّا.

-انظروا إلى البحر يا أحفاد القراصنة، قريب لكن لم يعد بوسعنا ركوبه والوصول إليه.

كاد رأسي ينفجر حينها من حدّة الأمواج الصوتيّة المتفاوتة. وللحظة أطلق كلّ الآدميين قهقهة موحّدة. راحوا يضربون بأرجلهم الأرض. وكان سبب ذلك. الآدمي الذي راح يصرخ في وجه زوجته المسكينة قائلا:

- لا تقتربي منّي بعد الآن.

ثم أشاح بوجهه عنها وصاح في من حوله.

-ابتعدوا عن نسائكم. لا مزيد من الجنس. لا مزيد من الروائح الكريهة.

الفَصْل الثّالثْ

الحصَار

--III

هناك في الأبراج العالية جدّا، أحدّق حيثُ النّجوم معلّقة ثابتة دون أن تسقطَ، مضيئة دون أن تنطفئ. العالم واسع جدّا ومليء بالمفاجئات. لكن ما إن ينبلج شعاع الشمس بقوّة. يخترق أدمغتنا العصفوريّة حتّى تتحّول القصبة إلى سجن عملاق جدّا. تتقلّص فيه أحلامنا ورغباتنا، ونستحيل إلى كائنات بائسة.

لنعد الآن الى الوراء قليلا. في إحدى أمسيات أكتوبر الحزين لا أتذكّر اليوم بالتحديد. كانت الساعة تشير إلى الرابعة مساء. شهدتْ هذه السّاعة بداية تغيّر ملامح القصبة وغموض أزقّتها. دّقتْ بشدّة في آذاننا. صمّتْ قلوبُنا. غلّفتْ عقولنا بالضياع الأبدي الذي لم نفهمه لحدّ اللّحظة، سوى بعض التفسيرات غير المؤكّدة، التي كنت استنتجها من حين إلى آخر.

حينما دقّ العمود الخشبي الذي كان يشبه إلى حدّ كبير أفعى مبتسمة. فتحتْ فمها وسط السّاعة . تك..تك..تك. انقطعَ التيار الكهربائي. انطفأ معه التلفاز وكلّ مصابيح المنزل.

لم تمرّ سوى دقائق حتّى ضجّ المنزل مجدّدا، مع عودة صوت التلفاز ورنَّ الهاتف بصوت مزعج على غير العادة. كان صوتُه مغلّفا بذبذبات عالية جدّا. لم تكنْ نبرة هاتف يريد التحدّث. بل كان تسجيلا صوتيا مفاده أنَّ التيار الكهربائي سيُفصل عن منازل القصبة لوقت غير معلوم.

لم تدم الرسالة الصوتيّة إلاّ ثوان قليلة. انقطعتْ بعدها وصمتتْ سمّاعة الهاتف. ولم يعدْ بها حرارة كالسابق. فلأوّل مرّة تُسرّب مثل هذه الرَّسائل إلى المنازل بهذا الشكل. شردتُ قليلا ثمّ تكرّر صدى الرسالة مجّددا في دخيلتي. لوقت غير معلوم. لم أكنْ أدري، ما الذي سأفعله. فكّرتُ في أنْ أنتظر جدّي سعد الفوربي حتّى يفيق من قيلولته.

الواقع أنيّ لم أكن أعني ما قلتُه للتّو، لأنّ جدّي قد فارقَ الحياة منذ أسابيع. لقد مات. رحمه اللّه. ولم أُقم له مراسيم دفن تليق به. بالكاد وجدتُ له قبرا شاغرا، بعدما دخلتُ في ملاسنة حادّة مع حارس المقبرة الذي قال صارخا: لا يوجد مكان شاغر، لقد امتلأتْ بالكليّة، ادفنوا أحبّاءكم في المنازل.

توجّهتُ بعدها إلى مقرّ البلديّة، على أمل أن أجد مخرجا من هذه

الورطة التي وقعت فيها. فجثّة جدّي كانتْ مغسّلة ومكفّنة، وقد مضى عليها وقت طويل. كنتُ متوجّسة من أن ينتشر من جسده الطيّب رائحة النتن. حينها لن أغفر لنفسي، لأنّني بذلك سأكون قد فشلتُ في أبسط حقّ في أن أجد له حفرةً أدسّه فيها. أستره عن عبثيّة هذا العالم المتحيّز.

لمّا مثلتُ بين يدي عامل تحرير الوثائق في البلديّة. طلبتُ منه تصريحا كي أدفنَ جدّي. أجابني بسرعة دون أن يكلّفَ نفسه عناء النظر إليَّ. لا يوجد قبور. ببساطة أجابني، وببلاهة غادرتُ مقرّ البلديّة. لم أرفع صوتي ولم أتشاجر مع العمّال هناك. لقد احترمتُ القانون ولم أشتم أيَّ أحد. كنتُ متأدّبة حدّ النذالة. أو لنقُل كنتُ جبانةً وباردة، لا تكترث بشيء، وقد خُيّل لي أنيّ بعملي هذا سأكون فتاة وفيّةً حضاريّة إلى أبعد الحدود.

لطالما اعتقدتُ أنّ الثورةَ في وجه العامل البسيط تصرّف خاطئ. لا يقوم به إلاّ أولئكَ الأوغاد المتبجّحون، الذين لم يُصادف يوم وأن ألتقيتُ بهم. ليلتها اشتريتُ فأسا. حفرتُ صحن المنزل، وقد استغرقَ ذلك أكثر من ساعة كاملة. أهلتُ على جثّته التراب بعد يومين كاملين من اللّهث والجري خلف التّوصيات والهراء. هذه كانتْ قصّة دفن جدّي المسكين.

أمّا سبب موته، فلم يكنْ بالأمر الجديد. لست فتاة بغيضة لا تأبه بموت جدّ طيّب، لطالما أحبّها. ولم يقصّر يوما في حقّها. لكنَّ هناك دوافع مبطّنة تبرّر برودتي. قبل أسابيع بالتحديد من موت جدّي.

سقط الكثير من الآدميين موتى، متأثّرين بلعنة مجهولة. كانتْ تفتك بهم دون رحمة. بمعدّل فضيع. خمسة كلّ أسبوع أو ستة، وازداد تسارع اللّعنة. تغيّرَ معها الجيران والأصدقاء، وأبانوا عن خبثهم ووحشيّتهم.

لم أعدْ أفهم ما يحدث في هذه الأزقّة الضيّقة. لم تعدْ بتلك الحياة والضجيج، اختفى صمودها. انطفأ وهجها. لقد تطوّرتْ الأمور بشكل مريع بعد تفشّي الموت. النحّاسون أغلقوا دكاكينهم بأقفال غليظة ولم يبنْ لهم أثر في تلك الحقبة التي مضتْ. وما لاحظتُه أيضا وأنا أتجوّل الشارع الرئيسي لباب الواد كثرة المشاجرات بين مجموعات مجهولة من الآدميين.

كلّ هذه الوقائع كانتْ في وقت مضى، وقد اقتنعتُ بضرورة تصديقها والتعايش معها. لأنّ مرور الوقت ودوران عجلة الحياة، يستلزم منّا الدوران معها. كما تختلط روائح المدينة مع الهواء وتندمج معها. والآن سأعود إلى اليوم التي كانتْ فيه السّاعة الرابعة مساء.

لقد خرجتُ مسرعة من المنزل، متوجّهة إلى أقرب دكّان من منزلنا. لقد بات الخطر و شيكا، وناقوس الحرب قد دقّ. هكذا اعتقدتْ. تصوّرتُ أنّ العدّو سيوجّه طائراته، وسيقصف كل الأمكنة المُضاءة. هذا ما سيفكرّ فيه أيَّ انسان في العالم يتلقّى رسالة شديدة اللّهجة. ركضت في الزقاق وأنا أنوي شراء ذخيرة من الشموع، قبل أن تداهمني ظلمة الليل وينتهي المطاف بي في فراغ موحش. حينها تكون الفرصة سانحة أمام ترْقُو كي تدغدغني حتّى الموت وتعذبّني، فهي تحبّ الليل وكآبتها الملعونة.

ما إن وصلتُ إلى الدكاّن حتّى تفاجأتُ بطابور طويل من الآدميين كانوا كلّهم يصرخون بقلق وغضب. أمّا البائع فقد وقف على صندوق خشبي. تكلّم بلهجة حادّة . عشر شمعات خلال أسبوع لكلّ منزل وفقط فالعدد لا يكفي وعليكم الاستهلاك بطريقة منظّمة. وإلاّ سينتهي بكم الحال في مقبرة مخيفة. ربّاه لقد كان الأمر فضيعا. أيمكنني تقسيم عشر شمعات على أسبوع كامل. وكيف يمكن للفتيل أن يجابه العتمة والتيه.

في الوقت الذي كان فيه ذلك العجوز يثرثر مع البائع، كنتُ أبتسم كإنسانة ماكرة، وكان سبب ذلك أنيّ فكّرتُ في قنديل جدّي الزيتي الذي تركه. قلتُ في نفسي: هذا هو الإرث الحقيقي الذي يتركه الأجداد وليس النقود والذهب .

ارتسمَتْ في ذهني زجاجة القنديل وأنا أحملها بكلتا يديَّ. وضعتُها على الطاولة المقابلة لسريري. رحتُ أنظّفها. أزيل عنها الغبار. وما إن أشعلتُ اللّهب حتىّ صعدتْ نار عظيمة. كادتْ تلفحني لولا الجلبة التي سمعتُها من حولي.

كان هناك عراك بالأيدي. بطله رجل قصير ذو شاربين غليظين يشبه القراصنة، سحب البائع بقوّه من خلف الصندوق وانقضّ عليه يضربه. كان يصرخ: أطفالي يخافون من الظلام. سآخذ علبة كاملة، ولن يعترضَ أحد طريقي. لكّنه هدأ حالما ما أحاطوا به عند الطابور. حاصروه في زاوية الزقاق، فراح يعتذر ويتوسّل لهم بأن يخلوا سبيله. بعدها غادر مسرعا دون رجعة. هكذا طُبّقت التعليمة على الجميع

واجتاحهم صمت عميق.

دارت أسئلة كثيرة في خلدي وأنا أضيف الزيت للقنديل كي يشتعل. هل سيدوم انقطاع التيار طويلا؟ هل كلّ أحياء الدزاير مثلنا، بلا كهرباء ولا هاتف؟ لا أحد يعرف، لأنّ التلفاز والمذياع لم يعودا يعملان. لم يبق لي سوى دفتري، الذي أستطيع أن أكتبَ فيه ما شئت.

في صباح اليوم الموالي، أُطلقت صفّارة عظيمة في الأرجاء. خرجتُ على إثرها شبه نائمة، وكأنّني في كابوس لعين. كنتُ أرى في طريقي آدميين كثيرين منقادين نحو الصفّارة التي لم تنقطع لحظة.

تجاوزتُ جامع كتشاوة. مشيتُ في الشارع الرئيسي رفقة عدد هائل منهم. كان الكلّ منزعجا ومستغربا من تلك الصفّارة الحادّة.

ما إن تجاوزنا مقهى طنطفيل حتّى شاهدنا الأسلاك الشائكة والحواجز العملاقة. لقد وُضعتْ في كلّ الاتّجاهات. أغلقتْ أبواب القصبة الخمسة. ماعدا الباب المؤدّي ناحية باب الواد. مُنع النّاس من التنقّل خارج حيّ باب الواد، باستثناء الشاحنات والعربات التي كانت باللون الأبيض. كان يقودها رجال بالزيّ العسكري. وما إن رأى النّاس هذا الحصار المُفاجئ حتّى انتشرتْ فوضى في المكان. راحوا يتدافعون، محاولين إزاحة الحواجز. لكن دون جدوى.

لقد قُضيَ الأمر ولم نعد أحرارًا. لم يعد بوسعنا التنقّل والمغادرة. ماهي إلاّ لحظات حتّى صعد رجل يرتدي عباءة زرقاء قصيرة وسروالا

فضفاضا. كان محاطا بعسكر مدجّجين بالأسلحة.

ابتسمَ في بادئ الأمر. أخبرنا ألاّ نقلق ونتوقّفَ عن التدافع وأن نضبط أنفسنا. أخرج ورقة. راح يقرأ ومكبرّ الصوت يهزّ أبداننا هزًّا. لقد أُغلقت كلّ المنافذ المؤديّة إلى هذا المكان، فلا فائدة من التفكير في الهروب، أو تسلّق الحواجز أو الحفر تحتها. نظّموا حياتكم بهدوء. سنزوّدكم بالطعام والشرّاب حتّى نجد حلاّ لهذا الخطر المجهول، الذي يحدّق بكم. الاحصائيات تزايدتْ بمعدّل عشر وفيات أسبوعيّا. هذه الظّاهرة غير مسبوقة وغريبة جدّا. علينا مُقاومتها وعليكم أنتم أيضا مساعدتنا في ذلك. الشاحنات ستوّزّع السلع والأدوية على المخازن. ستنالون حصصكم من الطعام التي ستبقيكم على قيد الحياة. لا تقلقوا لأنّ الأمر لن يطولَ كثيرا. سنتوصّل لطريقة ما لإنقاذكم. كونوا عقلاء وتحلّوا بروح المسؤولية.

بعضهم لم يتجرّع تلك التعليمات. فقدوا أعصابهم، وهاجموا تلك الحواجز العملاقة. لكنّ الجنود كانوا لهم بالمرصاد. أطلقوا عليهم النّار دون هوادة أصابوا أحدهم في رأسه برصاصة مدويّة، رسختْ في أذهاننا ولن ننساها. كانتْ الانذار الفعلي على الفجيعة التي ألمّت بنا. النساء راحوا ينوحون، والشيوخ رفعوا أيديهم إلى السماء قانطين متضرّعين إلى الربّ، داعيين أن يرفعَ عنهم هذا العذاب الواصب.

قالها الرجل ذو العباءة الزرقاء صراحة. أنتم الآن وحدكم في مواجهة الموت. أرجوا أن تتغلّبوا عليه. ربّاه ما الذي قاله وما الذي سمعناه. لم نفهم شيئا. حاولنا التنكّر لما سمعناه، لكن دون جدوى. نعم كلّ ما

قاله صحيح، وعلينا مواجهة الموت والنيل منه للأبد. ما قلتُه آنذاك كان جنونيا وطائشا. فمن الذي يجرؤ على تحدّي الموت.

ليس علينا أن نحيا حياة أبديّة. فكلّنا سنغادر هذه الأرض. سنودّع أحبّاءنا ولن نراهم مجدّدا. الموت هو النّهاية. تذكّرتُ أنيّ ولحسن الحظّ قد دفنتُ جدّي داخل المنزل، وسيكون بوسعي الترحّم عليه وشكره على كلّ ما قدّمه لي. قبره قرب نافورة الماء الرائعة، الآن هو يرقد بطمأنينة وأمن وهو يشعر أنّه سيبقى صامدا للأبد مع حيّ القصبة المُحاصر.

الفَصْل الرّابع

الضَّوء الوامضْ

-IV-

تنفّس صبح العام الماضي. مستمدّا سطوتَه من نتوءات قرص الشمس اللّامتناهية. استفز الآدميين، وحرضّهم على الاستيقاظ. كانوا وقتَها قد استفاقوا من براثن عذابهم الليلي. الذي ما برح يثقلهم بفجيعتهم. ينسيهم خطيئة مرآة خداوج التي روتْها لي حنّا. الجلوس على كرسي خشبي، قد وضعَه الأتراك في ارتفاع شاهق. التبصّر والاستكشاف شعور يراودني مذ كنتُ طفلة فتيّة. أمّا هروبي من صخب المدينة، إلى هذه الزاوية النّائية، فكان عادةً أمارسها كلّ يوم.

سدّدتُ نظراتي اتّجاه الميناء، حيثُ رستْ مراكب الشحن المحمّلة بالحاويات العملاقة. إضافة إلى عدد من السفن السوداء ذات المداخن الحمراء.

اكتظّ المكان. انتشرت الأهازيج رويدا رويدا، ممطوطة الإيقاع.

تغلغلت رائحة الملح المتوسّطي في الدخائل. كان العمّال وقتَها يحومون حول الحاويات العملاقة. بدوا من الأعلى وكأنّهم كائنات صفراء متماثلة. أضناهم صراخ ذلك الرجل الذي كان يكتب في السجلّ، أكثر من الجهد المضاعف الذي يبذلونَه، حتّى يخفّفوا من هذا الازدحام.

على مقربة من تلك السلسلة الحديدية الغليظة. أخذتُ أحدقّ في جرذ كبير، كان يحاول التسلّل من جحر. حاول الزحف برجليه الخلفيّة اتّجاه الصوت، لكنَّ عياط الرجل ذو الشارب الغليظ جعله يتراجع إلى الداخل كي ينتظر فرصة مواتية أخرى. بدا ذيله أطول من اللاّزم وعيناه جاحظتان. كنتُ أحاول تشكيل شخصيّة خياليّة له، وكان هذا ديدني مع كلّ الحيوانات التي أصادفها.

أختلق لها أسماء وأوصافا معيّنة. ربّما أشبّهها بآدميّ ما من حيّ القصبة. ابتسمتُ آنذاك. ردّدت كلمة «ميمو» بخبث كبير. لقد أسميته هكذا، وأردفتُ أكلّمني: ««ميمو» لا يفقه من لغة الدزيرين حرفا واحدا».

كلّ ما يفهمه أنّ هؤلاء الآدميين غاضبون. عصبيون لدرجة كبيرة. قفز في ذهني ساعتها وأنا أبحلق في الأشكال الهندسية لقطع السحاب المحلّقة في السماء، أنّ الجرذ قد نزل للتو من باخرة ما. ربّما تكون حاويات للقمح التي اشترتْها الحكومة من البلدان البعيدة.

سيكون لهذا المخلوق الصغير الفرصة كي يكتشف المدينة وأن

يتعرّفَ على فصائل من الحيوانات التي يعود أصلها إلى العصر القديم، فالقراصنة العثمانيّون أحضروا نوعا مميّزا من القطط. كانتْ وبرةً وأكبر حجما من التي كانتْ موجودة آنذاك.

في تلك الآونة حدثت ملاسنة كلاميّة بين الرجل الذي كان يحمل السجلّ وعامل آخر. ثمّ تطوّرت إلى عراك حقيقي مثير. ارتمى أحدهما على الآخر يلكمه، بعد أن بصقَ عليه العامل ورمى عليه السجّل. عمّت الفوضى في المكان. كلّ هذا حدث في بضع دقائق فقط.

حتىّ تلك اللّحظة كانتْ نفسي نقيّة عذبة، وكانت أغوار روحي متسلّحة بالإيمان واليقين الذي لم يتبدّد ولم يعتره شكّ قطّ. وبينما كنتُ أتأسّ على الذي حدث للعامل المسكين وعن فظاعة الظلم الذي وقَع له، سطع صوت ترْقُو فجأة، وانتشر كأزيز حادّ. ابتلع أفضية الصمت. ولم يعد باستطاعتي أن أغادر. فلقد سيطر على حواسي كلّها، واحتواني احتواء مضنيا.

تراءتْ لي كالطيف واقفة. فوق مقدّمة السفينة ذات المدخنة الحمراء. بدتْ أطرافها الأسطوريّة وكأنّها غير ملتصقة بجسمها. راحتْ تُبحلق في حركة الآدميين في الأسفل، تدلىّ لسانها وسال لعابها الأبيض الغرائي على جحر الجرذ ففرّ مذعورا إلى جوف الأرض. هزّتْ نهديها الشفافتين في الهواء، فكادتْ تقتل سرب النوارس المحلّق على مقربة منها. لكنّها انحرفتْ بسرعة مذهلة، واختفتْ في لمح البصر.

تجمّعت السحب المنقشعة مجدّدا. التفّت بالميناء تحيطه، فأصبح الجوّ غائما، في مشهد مريع. بدا أنّ السماء ستمطر فجأة، لكنّها لم تفعل. مع هذا الانقلاب لقرص الشمس المفاجئ. بدتْ ترْقُو جليّة واضحة. صار حجمها أكبر بعشر مرّات، ولونها شفّافا متذبذبا، كمصباح يومض فوق السفينة. راعَني منظرها المريب، وخزرتها الواخزة التي كان تشتّتها في أرجاء المكان.

كنتُ أظنّ أنيّ الوحيدة التي ألحظ ذلك. فنزلتُ سلالم الميناء، أريد ذلك الشعور المجهول، الذي راح يتأجّج. لم أقوَ على السيطرة عليه، حتّى وجدتُني أتسلّل إلى الداخل. أعبر الشبّاك الحديدي دون هوادة، وعنقي مشرئبّ مستطيل، تكاد تُفصل عن جسدي، حتّى اندسستُ بين العمّال، الذي تنبّهوا للضوء الوامض، فتجمّعوا تحت السفينة العملاقة مستغربين متسائلين عن من ركّبه وصنعه، وهم لم يروا قبل ذلك أنّه موجود.

قال أحدهم. إنَّ هذا الضوء الوامض قد ركبّه مدير الميناء كي ينذرنا حين اقتراب عاصفة ما. فردّ عليه الآخر نافيا ذلك: «هذا غير صحيح». وأنّه لو كان محقاّ. لكانت كلّ السفن تحتوي عليه، دون استثناء، لأنّ هذه السفينة العملاقة تغيب بالأيّام عن الميناء، وبرحيلها يكون هذا الضوء الوامض غير مفيد.

قال آخر مغمغما: «ما بال الظلام أطبق حولنا، ونور الشمس اختفى بسرعة مدهشة». في ذلك الوقت كان عليهم أن يطلبوا من المدير الحضور، كي يستفسروا عن الضوء الوامض الذي أرعبهم، وأشعرهم

بأنّه ناقوس حرب قادمة أو ما شابه. لكنّه وقف مذهولا ومرتعبا من مشهده الباهر. التقم الصمتُ لسانه، فلم يعد بوسعه أن يجيب، بل بقيَ صامتا، تتلقّفه الأمواج، وتعبث به.

تفّطن لعجزه الفاضح، واضطراب نبرة صوته المفاجئة أمامهم. ودار بكامل جسمه حولهم كي يخفى غريزة الخوف في دخيلته. انتصبَ بشموخ وأعرب عن زهوه، وفخره بالتطوّر الحادث في الميناء، وأنّ الحكومة قد وفرّتْ لهم أسباب الأمن والسلامة، وهذا شيء يستحقّ الإشادة به. لكنّه كان في أقاصي داخله. يتساءل عن هذه السفينة التي كان يراقبها يوميا، وقد أعاد أوّل يوم رست فيه. وأنّه يعرف كلّ صغيرة وكبيرة فيها. فكيف حدث هذا؟ وفشل في إيجاد أيّ جواب يرتوي به.

كان الأهم بالنسبة إليه أن يفرقّ هذا التجمّع، ويحثّهم على إكمال العمل قبل وصول السفن التجاريّة الأخرى. لم يمرّ وقت حتّى خبا الضوء الوامض، وزالت الشكوك والوساوس الدفينة. وبينما أنا أنسحب من المكان، اعترض طريقي المدير، بسؤال بدا لي منطقيًا: «ألم تقرئي تلك اللّافتة المكتوبة عند المدخل؟»...كانت يداه ترتجفان. كان مذعورا منّي. فأجبتُه مغمغمة: «الظلام حالك، ولا أستطيع قراءة أيَّ شيء».

حينما جهر بغضبه، وهو يطردني، اشتعلَ الضوء الوامض مرّة ثانية فصاح كلّ من في الميناء بذلك. تجمّعوا مرّة ثانية عند السفينة، وقد بقيَ الجوّ غائما على حاله، فبان كذب المدير. صاح أحدهم بجنون:

«إنّه حيوان مضيء. بل إنّه طائر العنقاء الأسطوري. يأتي مرّة كلّ عشر قرون».

قهقه كلّ الحاضرين. مشى أحدهم على أصابع قدميه، وقد أتاه من خلفه. غمّه بشاشية قميصه، وأحاطوا به يضربونه على رأسه، وهم يصيحون باستهزاء وتندّر. هاج كالثّور حينها. راح يركلهم، ويلعن تصنّعهم للعب، وهم يضمرون نفاقا بائنا وحقدا دفينا اتّجاهه. بدا كالمجنون وقد ارتطم بالصناديق الخشبية، وتدحرجَ فوقها، في مشهد يثير الضحك.

كانوا يمارسون نزقهم بحريّة مطلقة. وما إن خبا الضوء فجأة حتى تصلّبوا كالأصنام. ساد صمت عظيم. ظهر المدير من بعيد مهرولا غاضبا. لم يعرف لحظتها أنَّ الضوء الوامض انطفأ وعاد إلى التوهّج ثم خبا مجدّدا. فاغتاظ وتكدّر صفوه: «ألم أقل لكم أن تتفرّقوا وتلتحقوا بالعمل؟»

بقوا صامتتين، يحاصرونَه بنظراتهم المتوجّسة. غمغم أحدهم: «لماذا أطفأتَ الضوء الوامض؟» ردَّ عليه المدير وهو يصيح: «ارفع صوتك. ماذا قلتَ؟» حينها أشار العامل إلى الأعلى قائلا: «لقد انطفأ وعاد إلى الاشتعال ثم انطفأ مجدّدا». فبدا حينها المدير فاغرا فاه، وقد ازداد عجبا، ممّا يحدث في هذا الصباح. ورغم ذلك استمرَّ في عنته وكذبه الزائف. «لقد اطفأتُها كي أجرّبها». التفتَ اليهم مبتسما: «أظنّها ازدادتْ توهّجا». بدا حينها أنّه فقدَ صوابه، فلقد رأوه قبلها في مكتب المراقبة. يقلّب السجلاّت. يكتب بنهم كبير،

فكيفَ استطاع ذلك، ولا يوجد في تلك الغرفة المتآكلة الجدران أيّ زرّ سحري، أو زرّ آلي مثل الذي يستعملونه في الأفلام.

مضتْ ساعة على انطفاء الضوء الوامض، واختفتْ معها ترْقُو من أعلى السفينة. انشغل كلّ بعمله، عكس ما كنت أراه في زاوية خيالي حينما كنتُ في الأعلى. سطعتْ أشعّة الشمس من جديد. جفلتِ الريّح السحاب بعيدا. بدتْ الحياة طبيعيّة جدّا في الميناء، كأنّ مشهد الضوء الوامض لم يكن حقيقيا. حتّى الرجل الذي كان يسجّل السلع والبضائع في الدفتر، كان هادئا جدّا، لم يبدُ عليه القلق والتوتّر.

لم تستغرق عجلة الزمن في دورانها طويلا، حتّى تجلّى اليقين واتّضح. نزلتْ ترْقُو من عزلتها الشاهقة، ترتدي لحافا أسود. تمشي مشية عرجاء. أطرافها تتدلّى على الأرض. راحتْ تتعقّب عاملا، قد نأى بعيدا عن أصدقائه، الذين كانوا مجتمعين، حول وجبة الغداء. كانت تدنو منه ببطء شديد. لمّا وصلتْ إليه، راحت تدغدغه بشدّة. حاول الفرار منها. كان يلهثُ بينما تطارده في كلّ مكان. كان يحاول التملّص من الضحكة الشديدة التي أصابتْه، لكن دون جدوى. أصيب بالدوار. احتوته ترْقُو بظلّها الخرافي العملاق، الذي ارتفع إلى السماء فجأة. ثمّ سقط أمام الجدار.

كنتُ ألوّح. أصرخ حدّ الجنون. التفتَ المدير رفقة العمّال، وهم يقهقهون بشدّة. حذّرني المدير وهو يشير طالبا منّي الرحيل. كان العامل قد تهاوى واضمحلّ وسط السّواد اللامتناهي. لم يصرخ ولم

يطلب المساعدة، فقط بقي على تلك الحالة حتّى ناداه المراقب من أعلى البرج، وهو يصرخ بشدّة. «انهض انهض...أيها المعتوه». لكنّه لم يجبه ولم يكترث لصراخه الذي راح يرتفع إلى السماء لحظة بلحظة.

آنذاك أطلق المراقب صفّارة الإنذار التي دوّت في الأرجاء. ففزع كل من في الميناء. هرولوا مرتاعين، متسائلين عن الذي حدث. تركوا طعامهم ومشربهم، وقطّبوا وجوههم استعدادًا لنازلة ستحلّ بهم بعد الذي حدث. نزلتُ من السّلالم سريعا دون أن أكترث إلى اللّوح الذي كان يحذّر المارّين من الاقتراب من مكان العمل. وكانت الفرصة مواتية حينئذ كي يركض ذلك الجرذ العملاق مبتعدا عن الجحر.

اختفتْ ترْقُو بعيدا خلف قرص الشمس، وهي تناغي أشعّتها البيضاء النقيّة، كي تدنو منه، فيتوغّل داخلها. مارستْ طقوسها في هدأة وسكون، ولم تدركها أبصارهم. كبّلتْهم بسحرها وخديعتها الماكرة، التي استمالهم بها. راحتْ تكمل دغدغتها الأزلية في مكان آخر، خلف خطّ السماء المتمايل. كنتُ حينها قد شارفتُ على كشفها، لكنّها تملّصتْ منّي. اختفتْ كما هي عادتُها الشبقيّة. هدأتْ الجلبة في الميناء. تجمّع الكلّ حوله. وحينما عثروا عليه، وجدوه ممتقع الوجه. يتلوّى في تلك الزاوية النائية، كأنّه يقاوم عذابا لا يحتمل.

«هل أنت على ما يُرام؟»

سأله المراقب بصوت متهدّج .

«اغفروا لي. اغفروا لي»

هكذا قال العامل المتهالك.

ما راعَهم أكثر أنَّ أغواره كانتْ قد اختمرتْ بعالم روحاني. بدا مُحبطا قلقا. مترعا بالخيالات. كان الأمر أكثر فظاعة. راح يهلوس بعدّة قصص عن الموت. وبأنّه سيرحل عن هذه الحياة تاركا ابنته الصغيرةَ. وعبثا حاول أصدقائه أن يوقفوه عن الهذيان، لكّنه ازداد ثرثرة وهلوسة عن ذي قبل.

«بوسعكَ أن تأخذ عطلة أسبوعيّة إن شئتَ.»

هكذا نبسَ الرجل ذو الشارب الغليظ مبتسما بمكر.

راح يتكلّم عن الحسم وعن دور المكتب التجاري في الاعتناء بالمرضى وتوفير لهم احتياجاتهم، وما عليه إلاّ الوقوف على رجليه. كأنّه كان يكذّبه ويتّهمه بالتمثيل كي يتهرّب من العمل و يحظى بامتيازات المكتب.

في لحظة خاطفة لم تكن في الحسبان، انتفض العامل المتهالك. انقضّ عليه يلكمه، متشبّثا به، وقد تسارعَ لهاثه. رغم أنّ الرجل كان عظيم الجسم، الاّ أنّه لم يستطع التملّص منه. لولا تدخّل كلّ العمال في ذلك. انسحب الرجل ذو الشارب، وهو يحبو كصبيّ مسكين صارخا: «إنّه ليس هو».

من المؤكّد أنّ قوله هذا يعكس مدى استغرابه من تصّرفه

الهستيري، وأنّه يعرف طباعه، وأنّه ليس بهذه الوحشيّة مطلقا. لا جرم أنَّ كلّ أصدقائه كانوا يتمتّعون بروح الدعابة والمرح. من غير المعقول أن يتندّر أحدهم من رجل جاثٍ على ركبتيه، تكاد تنقطع أنفاسه. لم أكن أفهم شيئا ممّا حدث، فلقد اختمر في داخلي مشهد الجرذ بحركة هذا العامل المتهالك الذي يُحتضر ودون أيّ سبب أو علاقة تربطهما.

وقف العامل المتهالك. مشى مبتعدا عن المجموعة وكأنّه يتبع شيئا ما. كان يشير بإصبعه. يبكي بشدّة، مردّدا ما قاله في البداية. «اغفروا لي اغفروا لي». استدارَ إلينا وقد أصيب بالاختناق. راح يتلوّى بشدّة كأنّ وحشا يعذّبه. كانتْ تصرّفاته قبل أن يلفظَ أنفاسه الأخيرة غريبة جدّا. بدا كأنّه شيطان يُحتضر، وهذا ما لاحظه أصدقائه أيضا. لاسيما وهو يلعق دماء الرجل الذي عضّه من رقبته، كما أنّ عينيه كانتا مملؤتين بالشرّ والحقد. أليس هذا أمرا مرعبا ؟

الفَصْل الخَامسْ

عدتُ مِنَ المَّوتْ

-V-

في الصباح. كانت قرقعة المطارق في الزنيقة تزداد انتشارا مع قدوم السياح الأوربيين. تراءى لي في نهاية الزقاق امرأة شقراء تتبعها طفلة صغيرة وهي تتأرجح في الهواء وعجوز يلبس شورت أزرق وقبّعة حمراء، على الأرجح أنّه اشتراها من محلاّت الملابس التقليديّة في سوق الجمعة.

تسمّرت عيناي الغائرتيْن وأنا أحّدق في الفتاة. مستغلّة دخول جدّي إلى الداخل لإحضار الشمع ومحلول الآزوت. وللحظة تذكّرتُ نفسي طفلة صغيرة فاعتصرني الألم.

لا يمكن أن أتخيّل طفلا آخر أمضى حياة أتعس منّي، فالإرادة الإلهية قررّت ذلك. كان عليّ القبول والانقياد للأقدار. لقد وقع لي حدث في يوم شتائي بارد. غيّر مجرى أفكاري. طرد عنّي الأوهام الطفوليةّ

إلى الأبد. صيّرني إلى آدميّة مكتئبة بائسة. سبب ذلك أنيّ رفضتُ فكرة التعلّم مطلقا. لم أستوعب أن أجلس في طاولة وحولي أطفال لا رغبة لي في صداقتهم والتودّد إليهم.

كنتُ أعزو هذا إلى عزلتي الدائمة التي عشتُها في غرفتي طوال السنين التي مضتْ، وكان جدّي يشرح لي في كلّ مرّة أهميّة أن يكون الآدميّ متعلّما ويردف ذلك بوصفي بعبارات التمجيد والإطراء.

لم أكن أعير الأمر اهتمامًا. بل كلّ ما كان يشغل بالي حكايات الخيال والقصص العجيبة التي كنتُ قد تشرّبتها من سماعي الحكايات، وقراءتي للكتب. كان كلّ اهتماماتي أن أنغمس في عالم مماثل قبل أن تتلوّث أفكاري ويملأ السواد بصيرتي.

مع رفضي المطلق لكلمة المدرسة ازداد شغفي بتخيّلاتي الطفوليّة اتقادا يوما بعد يوما، حتّى خشيَ جدّي عليّ من تلك الأسماء الغرائبيّة التي كنتُ أقولها في محاولة منّي لتفسير تلك الصور والأبطال الكرتونيّة الملوّنة بالأحمر والرمادي. أحرقَها كلّها وأخفَى رمادَها. تركني طريحة الألم واليأس من فقدان أشياء كانتْ تزيل وحشتي. تفعمني بنشاط وحيويّة لا مثيل لها.

كان غضبي مفاجئا بالنسبة له ولي. صرختُ في وجهه. كسّرتُ زجاج النافذة. كانتْ تلك الليلة كابوسا فضيعا. التصق في ذهني كلّ تفاصيلها. فبعد الذي حدث، انفعل جدّي بصورة غير مسبوقة ممسكا يدي الصغيرة بقوّة. راح يجرّني كدميّة قطنيّة وسط أزقّة

القصبة الموحشة.

صعدنا الأدراج في ذلك المساء. سلكنا مسافة طويلة مشيا على الأقدام. كنتُ خائفة ومذعورة، فقد تصوّرتُ أنّه سيرحل إلى الأبد. لم تدم تصوّراتي الطفولية كثيرا حتّى وصلنا إلى باب سوره أبيض. أشرعه بجنون. دخلنا مسرعين وسط تلك الأشجار الكثيفة، متخطيّن القبور والحجارة والأعشاب التي كانتْ تغطّي أغلبها.

وقفنا أخيرا أمام قبرين متشابهين. راح يشهق بالبكاء وقال لي بصوت خفيض. «ها هما والديك، انظري هما تحت التراب». ظللتُ في مكاني، لا أقدم على فعل شيء، ولا أنبس بحرف واحد.

عانق جدّي جسدي النحيل الهزيل، والعواصف النفسيّة تعصف بكياني. كنتُ أخبره بأنيّ لا أعرفهما وأنيّ أحبّه كثيرا.

في واقع الأمر لم أستوعب ما قاله ولم أحسّه قط. بدا لي أنّه شعور غريب. لكنّ ذلك اللّوح المعلقّ والمكتوب عليه اسما والديَّ جعلني أشعر بالحزن، أو على الأصحّ ضرورة أن أكون حزينة بائسة، وأن أتحسّس حجم الفجيعة التي ألمّتْ بنا.

قبل ذلك يجب أن أذكر أمرا تناسيته. بدا لي أنّ سرده بلا جدوى ولا يمتّ بصلة قريبة أو بعيدة، وهو أنّنا وقفنا عند قبرين بالخطأ في بداية الأمر. راح جدّي يتفحّصهما. ينتف العشب الذي تسلّق حواف الاسمنت. قرأ اسميْهما ببطء شديد وكان يهمس مع نفسه كأنّه يتهجّى الذي كتب. بالإضافة الى أنّه كاد يذرف الدموع قربهما،

ثمّ انتبه لشيء ما. وبحركة مشتّتة أكملنا المسير إلى قبر والداي. كان يبدو وكأنّه يختار الموتى بعناية ودقّة.

في تلك الأثناء كان الغلس يحاصر المكان. الرعد يصمّ الآذان، والأمطار تكاد تحجب السماء. ضمّني جدّي واحتمينا تحت شجرة بلوط عملاقة وأنيني ينتشر شيئا فشيئا، كقطّة صغيرة تموء وسط الطريق.

هذا كلّ ما اعرفه عن والديَّ. قبراهما اللّذان أزورهما كلّ جمعة باستمرار. أخبرتهما أنّهما تركاني صغيرة بائسة، وأنيّ لا أعرفهما لذا لا أستطيع أن أشعر اتّجاههما بأيّة مشاعر. قبلاَ اعتذاري. ابتسما لي برسم تشكّل غبارُه المتراكم على الصندوق الاسمنتي الذي كان يغلّفهما .

أخبرتهما أيضا أنيّ حظيتُ بجدّ رائع، يسعى لتحقيق كلّ أحلامي وآمالي، وبأنيّ سألبيّ له رغبته في أن أكون متعلّمة كسائر الأطفال من العائلات الواعية والمثقفة.

أرجعني الزمن حيثُ كنت أبحلق. هزّني صوت بائع في الطّريق وهو ينادي عارضا سلعته. «شوفْ ما تشريشْ. اللّي ما شرى يتنزه. ما تحُول ما تزُول. الرخا يدهّشْ». أدرتُ رأسي مجدّدا صوب الزائرين الأوربيين. تساءلتُ عن صلة القرابة بينهما، هل هو زوجها؟ لكنّ فارق السنّ كان كبيرا بينهما، وعلى افتراض أنّها ابنته. فأينَ زوجته؟ ربمّا هو الحوار الوحيد الذي أشغل به نفسي في هذا الصباح الروتيني.

يعذّبني شعور قاس يهزّ كياني. أتساءل عن العالم خلف أسوار

القصبة كيف يمارسون المعيش. كيف يتسّلقون أرواحهم و يمحون عنها هذه الغواية اللّعينة.

يحوطني القلق في خلواتي، حينما أنعزل في الغرفة الجانبيّة للورشة يقابلني في الطاولة مقص ومطرقة و ازميل و أقلام. أبتسم بجنون وكأنيّ قد جُننتُ ثمّ أقول بصوت منكسر. أليس من المفروض أنْ تُقابلني علب من مواد التجميل كما كانتْ خداوج المدلّلة في قصر أبيها.

أليس من المفروض أن أستعمل ذلك المقصّ في قصّ سبلات شعري وأن أرسم بالقلم حواف عيني البائستين، أم أنيّ سأحي كالرجال طوال فترات حياتي.

لحظتَها مالَتْ في زاوية تفكيري أسئلة كثيرة...لمَ لا توجد نساء عاملات في زنيقة النحّاسين؟ لمَ لمْ أتزوّج حتّى الآن؟ أعرف أنَّ قبحي هو الذي منعني من ذلك خاصة هذا الأنف اللّعين الذي مازال يزداد طولا وبروزا مع تقدّمي في العمر. أضحك مع نفسي وأتصالح معها وأنا أهمس «ما حاجتي بالرجال كلّهم مقرفون. عليهم اللّعنة جميعا».

منذ زمن ونحن نعكتف أيّاما وليال من أجل صنع قطعة نحاسيّة واحدة. يقوم جدّي بالحفر و النقش و التجويف باستعمال المطرقة وحفر الأخاديد على الجدران. أقوم أنا أحيانا بجعلها برّاقة عن طريق التلوين بالأكسدة كما تعلّمتُ أن أغسل القطع بالماء الساخن وأجففها بنشارة الخشب.

-عشرون ديناراً للقطعة. مصنوعة بإتقان. كلّ تفاصيل قصر الدّاي منقوشة فيه. افحصها بنفسك.

هكذا ردَّ جدّي على رجل يسأل عن ثمن صينية متوسطة الحجم مرسوم عليها قصر الداي.

-عشرون! غالية جدّا. أعطِها لي بخمسة عشر. أريد أن أزيّن بها الصّالون.

-الأسعار غير قابلة للمساومة. لقد عكفتُ على نقشها أكثر من أسبوع .

ردَّ جدّي مغتاظا.

-هذا كثير. صار الأمر لا يُطاق

صرخ الرجل وهو يرحل عن الدكّان:

-تعال. لكي لا تغضب. خذها بثمانية عشر، فقط من أجل ابنتي. فمن عادتي أن تكون الأسعار غير قابلة للمساومة.

ناداه جدّي محاولا أن يمتصَّ غضبه.

-نعم سأشتريها. لفّها لي في كيس.

ثمَّ زمجرَ. قطّب حاجبيه وأردف قائلا:

-دع الفتاة تبيع بدلا عنكَ. كي تكسبَ زبائنك.

كنّا مجبرين على تحمّل سذاجتهم وأسئلتهم عن كل قطعة على

حدة. إن لم نشرح لهم ذلك على النحو الصحيح، يغادرون الدكّان غاضبين. لذا عليَّ في أغلب الأحيان أن أكذب وألفّقَ القصص والأحجيات كي أرسم البسمة على وجوههم. ربمّا هو الدور المنوط بي، وقد اعترف جّدي لي بذلك حينما قال. «لقد كنتِ سببا في إقبال السيّاح على دكّاني».

سألني شيخ طاعن في السنّ عن دار السلطان المنقوش في ابريق كبير.

- إلى ماذا يرمز هذا النّقش؟

- في الزمن الغابر كان هذا القصر مرقدا للأموات قبل أن يرحلوا الى العالم العلوي. رسمَ جدّي هذا النجم السأّطع. من فوق السطح. دلالة على وقت توهّجه، ويحدث ذلك كلّ مرّة في العام. وهو وقت سحب الأموات من القصبة.

حينها قهقه الشيخ بشدّة. اشترى منّي الإبريق. رحل مكتشفا كذبي واختلاقي للقصّة. كان ذلك يحدث مع كلّ زائر يتكلّم معي. منهم من يخفي ابتسامة خلف أسنانه، ومنهم من ينفجر. أمّا الزوار الأوربيون فكانوا يدوّنون ذلك، مع كلّ قطعة يشترونها، وكنتُ أستمتع بذلك.

رغم ذلك يأتون بعدد محتشم من حين إلى آخر. لاسيما وأنّ التحف المصنوعة من السيراميك انتشرت في الآونة الأخيرة، كما أنّ الانتاج المقلَّد قد غزا أسواق دزاير بشكل فضيع.

لعلّ الشي الجميل الذي حدث لي هنا، أنيّ صنعتُ إبريق البوقال بعد أسبوع كامل من العمل المتواصل. كان جدّي مسرورا بإصراري على إنهائه والبقاء حتى ساعات متأخرة من المساء في الورشة. وهو عبارة عن ابريق من النحاس الأحمر. نقشتُ عليه أسماء صديقاتي على جدرانه ...داحيبة. زوليخة. لالَّهُمْ.

كنّا نجتمع في دار داحيبة. نكوّن حلقة بصحن الدار. تتقابل أعيننا. نتبادل تلميحات خاصّة، وانفعالات طفوليّة. تنتهي أحيانا بالدّموع.

نسمّيها بلعبة الفأل. تبدأ لالَّهُمْ كلمتها الشهيرة. «هيا يا نساء القراصنة». الحقّ أنّنا كنّا عازبات ولم تقترن أسماؤنا باسم رجل قط. كانتْ هذه اللعبة مجرّد تسلية وكفيلة بأن نسمع كلّ الحكايات التي تُروى خلف جدران القصبة. وما إن ترمي إحدانا خاتمها الذهبي في البوقال حتّى تبدأ أخرى بسرد الأخبار والفأل حول رجوع الغائب الافتراضي، الذي نتوهّمه جميعا. أحيانا تنحرف هذه الأخبار للحكي عن حياتهنَ الخاصّة حتّى يتخلصنَ من مخاوفهنَ.

تقول داحيبة:

«لُو كَان طُلْ علينَا

كِيفَاشْ كُنَّا، كِيفاشْ ولّينَا

أنتَ الهاربْ من الغُمّة والغبينَة

نتمنَّى تْجينَا. تشُوفْ القلوب القَاسْحَة، ولاَّت حنينة

و الوديان الناشْفَة شربْنَا منها ورْوينَا.

هذي رحمة ربي نزّلها بعد كل تشطينة و ربيّ يدوّمْها لينا وعلينَا.»

حالما تنتهي نطلق أهازيجا من الزغاريد في صحن الدار كطلقات للبارود إذعانا بالنصر الأبدي. ولكن على من؟

تقول زوليخة.

«عَيّطَتْ عيْطة قوِّية

فاقَتْ النَايمَة وقفزتْ الحَيَّة

وقُتْلوا يالخريفْ راكْ طَوَّلتْ عليَّا

قالي وَكَان تُصْبري يا البنيَّة

هذا الزمَانْ يفرقْ ويلاَقي

والربيعْ لابُّدْ يجي ويلّم أوراقِي

اصبري. يَاكْ الصبر هو المُفتاح

وبقُدْرة رَبيّ اللّيل يوَليّ صْبَاح

والفَسَادْ يوليّ صلاَح

وتروحْ هذيكْ الغُمّة

والقلْب يرتاحْ».

أمّا أنا فلم أكن بنفس لهفتهم إلى أحاديثهم النسويّة. لم يكن يعنيني

ما يحكونَه عن سي عبّاس. الرجل الذي تعقّب داحيبة بسيّارته خضراء اللّون. موديل سيمكا. علقَ بزقاق ضيّق، ظانا أنّه طريق للسيارات، لكّنه تفاجأ بأنّه وقع في ورطة حقيقة.

آنذاك أطلقتْ داحيبة عيطة ساخرة وضحكا هيستريا، وهي تحرّك جسدها المغري، المتّشح بالحايك. انتهى به المطاف، أنْ جلس متربّعا على سطح سيّارته. يغازلها ويترجّاها أن ترحم قلبه المنكسر.

التقاها بعد يوم واحد فقط. صعدتْ رفقته إلى أعالي العاصمة. تبادلا قبلات مسروقة بجانب مقام الشهيد الشاهق. وعدها هناك ألاّ يتركها وأن تكون أميرته وذبيحة قلبه للأبد.

أمَّا لالَّهُم فحكتْ لنا عن قصّة المطر. المطر الذي تساقط فجأة، حينما كانت رفقة ابن عمّتها رياض. كان شابا فنّانا بامتياز. يعزف على القيثار. يحفظ كلّ الأغاني الشعبيّة والموشّحات الأندلسيّة القديمة.

بقياَ صامديْن تحت المطر المنهمر أكثر من ساعة كاملة، وهي تقول له. «إنْ تحرّكتَ من مكانك وتوقّفتَ عن العزف، فلن أراك بعد الآن». لقد كانتْ تعتبره إنجازها العظيم الذي حقّقته.

ترويها بكلّ مشاعرها الجيّاشة. تستطير البهجة من محيّاها. تشّع بنور الحنين القاسي. أمّا ضحكة زوليخة الشاهقة فترتفع في صحن المنزل ساخرة منها: «هذا هو الهبل بعينه». ظلّتْ تُقسم في كلّ الجلسات أنّها لم تحبّ أحدا. لم يستهوها آدمي في الدزاير بأكملها. لكنّها كانت متأكّدة أنّها ستلتقي به يوما ما. يتجوّل قرب الميناء.

يرتدي قبّعة سوداء، ونظّارة طبيّة. يتبعه كلب من فصيلة أوربيّة نادرة.

لا نعرف من أين كانتْ تأتي بتلك الأوصاف الغريبة. سوى أنّنا نسرح في الخيال معها. نبتسم بمكر دون أن تنتبه لنا. وما إن تشعرَ بذلك حتّى نركضَ في المنزل كالأطفال. يحلّق صياحنا في كلّ سماء القصبة ممتزجا بالغيوم الملبّدة، والمستقبل الغامض الذي ينتظرنا.

** ** **

انسكبتْ أشعّة الغروب البرتقالية. هدأ الزقاق من الضجيج. لم أعد أسمع طقطقة المطارق. اقتربتْ الظلمة تجرّ الظلال من الأعماق. عاودني أزيز حاد كالعادة. ارهاص الفزع تجدّد. اختمر بحواسي. جعلني أتصبّب عرقاً، على غير العادة. لأوّل مرّة يختنق نفسي. تتسارع نبضات قلبي. أرتجف وحدي. لقد صرتُ سقيمة شقيّة.

مزّقني احساس نبع فجأة. إحساس بالذنب تجاه الآدميين. لمَ لم أقل لهم إنّي رأيتُها لحدّ الآن؟ إشارات مجهولة. عالم كثيف يلتفّ من حولي. للحظة سقطتُ على الأرض. كدتُ أختنق من الإعياء النفسي.

تحلَّق حولي العاملون. جدّي رّشني بالماء. هزّني بقوّة. ضمّني إليه وهو يذرف الدّموع. كان يخال أنّي أحتضر. بكى بحرقة شديدة. صرخ فيمن حوله بأن ينجدوه. تناظروا بينهم بائسين. سمعتُ صوتا خافتا يقول: «الموت هو النّهاية» لم يسمعه أحد غيري. سمعتُ أيضا آدميّا آخر يقول: «لقد ارتاحتْ الآن» جدّي كان يتضرّع بالدعاء. انبثقتْ عشرات الأصوات دفعة واحدة. رنوتُ إلى الدخائل. ابتسمتُ

كالمجنونة ممّا يهمسون.

صرتُ سمّاعة لكل شيء أدرك ما الذي يحدث حولي. أحاول أن أقول لهم إنّي بخير، لكنّ الخرس عصف بي. تحوّلتُ إلى امرأة بكماء، تسمع كلّ شيء، لكّنها لا تقدر على البوح. كأنَّ قوّة مجهولة، تمسك لساني بقوّة. أغمضتُ عينيَّ بشدّة. رأيتُ ترْقُو في أفق بعيد تدنو منّي. تحرّك ثدييها الشفّافتين. انتصبتْ قدّامي شاهقة. تصرخ بالألم:»عزيزة.عزيزة». تتضاحك بأنفاس متقطّعة، وكأنّها تنوح بالفجيعة.

انكمشتُ في مكاني. تسلّق البكاء فراغ مقلتيَّ. مدّتْ طرفها نحوي. لمستْ رأسي. راحتْ تربّت عليه بهدوء. دون أن تؤذيني. دون أن تدغدغني كما هي عادتها الشبقيّة. اخترقتْ صندوق ذاكرتي. قرأته كعرّافة قديرة. ثمّ أرغمتني على الخيال. رأيتها في الصحراء تركض عاريةً، تتمرغّ على الرمال. تعوي كالوحوش اللّيلية، المتضوّرة بالجوع. يتجمّع حولها الذّئاب والودّان، كي يواسوها في انكسارها، لكنّها تطردهم. تركض صوب الجبال والوديان. تغير على قبائل الآدميين، تسرق بعض فتياتهن. تحفر حفرة كبيرة في اللّيل، تدسّ أطرفهم هناك، وتطمرها بالرّمال. تحدّق إلى القمر منكسرة. ملامحها تشبه آدميّة حقيقيّة. تتمسّح بأطرافها على وجهها الشفّاف. تتنفّس بعمق، ثمّ تتكوّر شاهقةً بالحزن.

استفقت فجأةً على شهقة تغادر صدري. وكأنّ ترْقُو صفعتني بقوّة. وثبتُ في مكاني. كانت الجلبة عالية الصدى. الآدميون يشيرون إلى

آخر الزقاق. عانقني جدّي. صرخ في وجهي منفعلا: «كنتِ ميّتة» ثمّ أشاح بوجهه إليها. تراجع إلى الوراء. فغر فاه من الدّهشة. كانت هي. لقد تكشّفتْ ترْقُو أمام الآدميين. ظهرتْ بصورتها الحقيقية. منتصبة صارمة، تحرّك أطرافها الخرافيّة. وثدييها الشفّافتين. ملامحها النّحاسية، تلمع بشدّة. قامتها الماردة، تحجب الرؤية.

تقهقر الآدميون أمامها. اختبأوا في الدكاكين. دغدغت بعضهم، فتمطّى الضحك إلى السماء. مات بعضهم إثر ذلك. وفرّ آخرون عبر سلالم الزنيقة. تصايحوا بأنّها شبح خداوج العمياء. طفقوا يرشقونها بالكراسي الخشبيّة والصينيات. لكنّ جسمها المطّاطي لم يصب بأذى. تأكّدوا حينها أنّها ليست امرأة مشوّهة. قرأوا سورة الفاتحة سويّا. لكّنها لم تتزعزع. أكملوا قراءة سور أخرى، فازداد حجمها. وزمجرت غاضبة. أمّا أنا فقد اختبأتُ مع جدّي داخل الدكّان، حتّى حلول اللّيل. بعد ذلك تسلّلنا منه. واتّجهنا إلى المنزل مفزوعين.

بعد أيّام من تلك الحادثة الفظيعة. عاد العاملون إلى دكاكينهم. عبقّوا الزنيقة بالبخور. قرأوا أورادا صوفيّة قديمة. وتناسوا كلّ شيء. كأنّ شيئا لم يحدث. كنتُ كلّما أكلّم أحدهم عن الموضوع، وأسأله عن ترْقُو. وهل هي حقيقة أم وهم. يعرض ويتجاهلني بالكليّة. حتّى جدّي أنكر الحادثة برمّتها، وادّعى أنّه وهم اجتاحنا، ولا يمكن تصديقه بأيّ حال من الأحوال. وأنَّ المهّم بالنسبة له أنّي نجوتُ من الموت.

الفصْل السّادسْ

الدّفن سرّاً يسعدُ الموْتىَ

-VI-

كان صدى أصوات النّسوة يتوغّل في دخيلتي، كما الحلم تماما. لا أعرف ما الذي جعلني استيقظ على السّاعة الخامسة، صباح يوم الجمعة كانت تكبّلني رغبة محمومة في حمّام ساخن.

انتشلتُ جسدي النّحيل من الفراش. تهيأّت للمغادرة. كان الأمر أشبه بالرحيل إلى الأبد. ولكن إلى أين؟ الأمر لا يتعدّى ساعة زمن، ثمّ أعود واجمة، يغلّفني الضياع من جديد. يتجلجل الحزن الى الأقاصي. الزنيقة خاوية تماما. الهدوء يكتسح الأمكنة. لا يوجد سواي، أحمل سعفة كبيرة، أنتظر أن يحين الوقت.

صاحبة حمّام سيدنا. سألتني حينما رأتني واقفة عند الباب. هل أصابك شيء؟ أطلقتْ ضحكة هادرة ساخرة، وهي تلوّح برزمة مفاتيح. تحجّجتُ حينها بأنّ ساعتي كانت معطّلة، وأنيّ كنت مريضة، وبدأتُ

أتماثل للشفاء. فما كان منها إلّا أن واستني، ورحّبت بي.

حينما دلفنا الحمّام، هيّأتْ لي الجابية، وتركتني وحيدة. كما تركني كلّ الذين أحببتهم. أطلقتُ آهة حارّة. صرختُ بشدّة. راح الصدى ينعكس بالألم. ينخر جسدي النحيل. شعرتُ بأنّ كلّ العالم يراقبني، يمتحن طاقتي ونفاد صبري. ربّاه يا مولى القاع على قول جدّي. رحمه اللّه. ارحم ضعفي وانكساري. مدّني بخيوط الحقيقة. وإن كان هذا عذابك فارأف بي. لأوّل مرّة منذ زمن طويل، استرجع ذكرى اللّه. أوراد الّصالحين وابتهالاتهم حينما يقفون على أعتاب ضريح سيدي عبد الرحمان الثعالبي. دعاء جدّي حينما كان يصلّي الفجر.

في الأمكنة الهادئة الحزينة. نحنّ الى اللّه. نتكوّر في أماكننا. نطلب الرّحمة. ننيب إليه، و نترجّاه أن يُساعدنا. عرق بارد يغلّف أطرافي. يحتوي كلّ الأسئلة الهامشيّة. يمنعها من الطفو على سطح الذّاكرة. كأنّني أحتضر.

فكرة الاستعداد للموت، بحدّ ذاتها فكرة مخيفة ومرعبة. هل تقدر امرأة عادية أن تخيط كفنا أبيض، وتطرّزه بالورد. تخبّئ قارورة عطر كبيرة. تلفّها بكيس صغير. تضع ورقة بيضاء على الطاولة. تحضّر الدّواة والحبر، لتكتب وصيّتها الأخيرة. وفي أسفل الوصيّة، تقسّم ميراثها من الذهب والمجوهرات، وحتّى ملابسها وحذاءها. كلّ شيء يخصّها سيبقَى فوق سطح الأرض. فالعالم الروحاني لا يقبل إلاّ الأجساد العارية.

الأجساد العارية هي قربان يقدّمه الآدميون منذ الأزل، الى قوى مجهولة. هل يقدر آدمي عادي أن يحفر قبره. يضع عليه غطاء حديديا. يرشّه كلّ يوم بالعطر. يزيل عن حوافه العشب والحجارة الصغيرة بانتظام. يجرّب للحظات دور الميّت. يسحب الغطاء. يتمدّد داخل القبر. يراهم يتندّرون منه، فيخال نفسه لم يتقن الدور جيّدا. يخلع ملابسه كلّها. يشير إليهم من بعيد مبتسما. فتركض النّساء خارجا، ويهجم عليه الرجال غاضبين، مزمجرين كالوحوش الضاريّة. يقول لهم: "أنا أستعدّ للموت". يلكمه أحدهم ويلطمه آخر بكفّه. يكرّر ما قاله صارخا: "دعوني أستعدّ للموت..."مجنون دعوه". يقول أحدهم مدافعا عنه.

شهقتُ أبكي بحجم الضياع الذي في داخلي. عصرتُ شكوة عينيَّ. حتّى نضبتا من الدّمع السآخن. تنفّستُ بعمق. تذكّرتُ أولئك الموتى الذين فارقوا الحياة. تساءلت في نفسي. لماذا لم يذكروا اللّه؟ لماذا لم يطلبوا منه الغوث. أيعقل أنّهم نسوا ذلك !

كانت فرصتي الوحيدة حتّى أركن إلى خلوتي، قبل أن تأتي النّسوة. فيضجّ المكان ويعج بهنّ، وأضيع في صخبهنَ المضجر. كنت أفكرّ مليّا في الذي يحدث معي. كيف لي أن أفيق من خيالاتي المترعة. خلا المكان. أغمضتُ عينيَّ، وأنا أغرغر الماء. أدلقه على شعري بالكأس الفضيّ.

كنتُ أحاول إبعاد فكرة الموت، التي انتشرت بفظاعة في الآونة الأخيرة. لكنّها لم تُغادرني لحظة واحدة. كلّ يوم يتبع الآدميون الجنائز

جيئة وذهابا. تزدحم أزقّة القصبة من كلّ الجهات. "أسرعوا بالدّفن". كلّهم يردّدون هذه الكلمة، صغارهم و كبارهم على السواء.

"الدفن سرّا يسعد الموتى". هكذا قال لي أحدهم، حينما اصطدمتُ به وهو يتبع جنازة مهيبة. ابتسمتُ مع نفسي. تعجّبتُ ممّا قاله. أين السريّة ؟ القصبة بأكملها تحوّلتْ الى مقبرة جماعية. هل بنيتِ قبرك؟ أضاف الرجل وهو يرمقني بنظرات فاحصة. تفاديتُ أن أجيبه حينها وأجفلتُ. سمعته يقول لي من الخلف: «إذا لم تجد فعندي قبر شاغر لك".

أسائل نفسي عن مصائر الذين يدسّون في القبور. أين يذهبون؟.. كيف ينتزع اللّه أرواح الحالمين من البشر، دون أن يحقّقوا أيّ شيء. دون سابق انذار. أغطس في الجابية، كاتمة أنفاسي للحظات. أطلق نفسا عميقا حالَمَا أخرج. يصعد البخار الكثيف إلى السقف، ثمّ يمتلئ المكان به. يخيّل إليَّ أنيّ أسمع صراخ النساء. أحاديثهم ونكتهم الساخرة. تتردّد في أذني كنغمات شجيّة.

في الأخير أفيق من الأصوات الكثيفة، والزخم العابر. أرسو على يابسة السكون مجدّدا، منتشية دفء المكان وحرارته السّاطعة. أيعقل أن يكون جدّي سعد الفوربي هو الوحيد المتبقّي من عائلتي...أين الآخرون؟ أسائل نفسي بصوت مرتفع. أين أقرباء والديَّ وأين صورهم. كان جدّي يقول لي دائما أنّهم يسكنون بمدينة صحراويّة. وليس بمقدورنا الوصول إليهم.

وحينما ينتهي من سرد خديعته، أرمقه بنظرات بائسة. إنّه الإحساس بالخوف والضياع. فلا يُعقل أن أكون آتيَة من العدم. لا يُتصوّر أن أكون عزيزة فقط، دون صلة تربطني بالآدميين. مات جدّي دون أن يقول لي الحقيقة.

ظلّ طوال السنين يكرّر حكايات غريبة. أخبرني أنّ عائلتنا قدمتْ من مدينة بعيدة وأقامتْ بالقصبة. سردَ عليَّ أسماء مجهولة. عمّي الافتراضي مُقداد، كان تاجرا ذائع الصيت. وأخوه النّعاَس كان شاعرا شعبيّا قديرا. عمّتي الافتراضية الكبرى عرعارة حطّمتْ رقما قياسيا، في مدّة بقائها على قيد الحياة. لقد أكملتْ العقد الثالث بعد المائة. يقولها جدّي ساخرا متهكّما. ويضيف مقهقها: "لقد كانت شاهدة على موت كلّ سكان المدينة...امرأة حديديّة".

لقد دوّنتُ شجرة العائلة الافتراضية وأسماءهم على دفتري. خططتُ جدولا لأعمارهم، وتغيّرها مع مرور السنين. لكنّي في النهاية أخفقتُ، لأنّه لم يكن باستطاعتي معرفة أسماء المولودين الجدد. لم تكتمل السلسلة. صفحتان فقط كانتَا كافيتان لأتوقّفَ، وأغلقَ الدفترَ نهائيا.

انقشع البخار الكثيف حينما أغلقتُ العين. كنتُ أرنو الى المداخل الضيّقة في صحن الحمّام، كانت أشبه بالمتاهات المظلمة. صاحبة الحمّام اختفتْ. لم أعد أسمع وقع خطواتها. هبّت ريح عاتية، وتلتها أضواء باهتة، كانت تنتشر من أسطح الكوّات الصغيرة . تكوّرتُ في زاوية الجابية كقّطة شريدة، وسرتْ في جسدي صعقة كهربائية شديدة.

صار قدومها ارهاصا ملازما لي. أتنبّأ بقدومها. أشعر بريح باردة حولي. متعلّقة في الهواء. أزيز الصوت المتلاحم الذي يصمّ أذني. ينفذ إلى الأعماق. يشوّش الذاكرة ويفقد العقل القدرة على التفكير. قدومها كان حالة نفسيّة تنتابني. تسيطر على حواسي كلّها. لا مناص من قوّتها الخارقة، وقدرتها الخفيّة على الاختراق.

إنّها ترْقُو ولا شكّ. ستكون نهايتي هنا. مقتولة عارية في الحّمام. اقترب الضوء وانتشرتْ معه أصوات الموتى وهم يغنّون لحن النهاية، ولحن البداية الأخرى. هل هناك بداية أخرى؟ كان بإمكاني أن أكون آدميّة ناجحة جدّا، ولكنّي لم أستطع. لم أقدر على مجاراة هذا العالم الشفّاف، الذي استطار فجأة، وغمر كلّ شيء.

أغمضتُ عينيّ واسترخيتُ. كنتُ مستعدّة لأن تنطلق روحي بأقصى سرعة، إلى الملكوت الأعلى. لكنّ الأمر بدا مختلفا. لقد صدحت زغاريد عالية. ردّدتها الجدران النديّة. وتحوّل المكان في لحظة غامضة إلى حفل.

تراءتْ لي نساء القصبة عاريات، يلبسنَ البنيقات فوق رؤوسهنَ. يحملنَ الشماعد. كنَّ يقمن بطقوس دينية عجيبة. يردّدنَ الموشّحات. يرقصنَ بإثارة قصوى. كيف حدث الأمر فجأة. أين صاحبة الحمّام؟ وثبتُ في مكاني. اتّجهتُ إلى المكان الذي وضعتُ فيه سعفتي، وأخرجتُ الفوطة. كنتُ أنوي الركض صوب الخارج، قبل أن ينتبهنَ لي. حينها انتابتني رغبة كبيرة في الصراخ، أو البكاء ربمّا. لكنّي تماسكتُ وأنا أمشي وسطهنَ. ولم أدرِ حتّى أمسكتني يد من الخلف

من ذراعي. إنّه عرس جارتنا الجازية.

لقد كان صوت داحيبة. قدّمتْ لي صحنا من الحلويات. أومأتُ لها برأسي، فلم أستطع أن أفتح معها حوارا عاديا. كان لساني قد التقمه الصمت. حلّت عليّ دائرة الشرود. رأيتهنَ يحطنَ بالعروس، وهنَ يصنعنَ حلقة واسعة. يتحرّكنَ متمايلات بغنج كبير. يحمنَ حولها كرقصة الدّراويش المعروفة عند الطريقة الصوفية تماما.

ترفع الواحدة فيهنَ يدها اليمنى إلى الأعلى، وتخفض اليسرى إلى الأسفل، ثمّ يليها التصفيق والمناجاة. تحنّ أجسادهنَ وتضطرب في غياب الأرواح، التي تنسلخ منها وتعرج إلى المحل الأرفع. رياضة تفضي إلى رقّة القلب ورهافة الحواس وعذوبة النّفس.

عند خروجي اعتذرتْ لي صاحبة الحّمام. أخبرتني أنّها نسيت، بأنّ هذا اليوم كان محجوزا للزفاف.

في المساء. زرتُ داحيبة في منزلها، واصطحبتُ معي لالّهم. بدت ممتقعة الوجه حينما فتحتْ لنا الباب. لم تسلّم علينا بالحرارة المعهودة. أحضرت إبريق شاي ساخن. وضعته على الطاولة المستديرة. ثمّ اتّجهتْ إلى المطبخ، دون أن تكلّمنا. مكثنَا زمنا طويلا. سمعنا فيه صوت المواعين، وحديثها المرتفع مع نفسها.

رأيناها في صحن المنزل وهي تتحرّك بسرعة، كأنّها محلّقة في الهواء. كان شعرها غير مصفّف. تُخرج عينيها من محاجرهما، وكأنّها لم تنم طوال اللّيل. أو ربمّا بسبب الإعياء. فلقد كان الرقص الصّوفي،

مرهقا جدّا. رغم ذلك كانتْ لالّهم في الصباح في قمّة الزهو والفرح، وهي تقلّد النّسوة في دورانهم مع تناغم الابتهال الذي يردّدونَه.

بعدما انتهتْ من عملها، جلستْ قبالتي تراقبني، كأنّها لأول مرّة تراني، ثمّ صدحت ذبذبات صوتها المتقطّع عاليًا.

-لقد دغدغتني حتّى الموت.

تلاقت الأنظار المستريبة وابتسمنا أنا ولالّهم. كنّا نعتقد أنّها تزعق كعادتها، لكنّ صورتها أصبحت باهتة فجأة، كأنّها استحالت إلى جسد هلامي. قصّت تفاصيل موتها بدقّة متناهية. كانت في كل مرّة تتوقّف فيها شاردة، كأنّها تستقي من معين الوهم. لقد لفّها التيه. أحاطها غياهب عالم آخر. طواها المجهول. وفي كلّ مرّة تحدّق فيها داحيبة إلى السقف الخشبي، كانت لالّهم تهمس لي في أذني بأنّها قد جُنّت.

- فبعد أن غادر النّسوة مع العروس في الصباح، سكبتُ الماء في القدر الحديدي، لأنّ العيون كانت قد أُغدقت. توقّفتْ عن الانهمار. كنتُ وحيدة هناك، لقد أصبح المكان موحشا فجأة.

تمطّى فيه سكون رهيب. كنت أشعر أنّ هناك أحدا يراقبني. ركضت عارية في تلك المتاهات المظلمة. تحسّست جدرانها الحامية كالمجنونة لكنّني لم أجد شيئا. مشيتُ بتؤدة كي أشعل النّار. لكن حينما اصطدمتْ أصابع رجلي اليمنى بالجابية، خطرت في بالي فكرة جهنّمية.

قفز في ذهني مشهد منعش. ملأتُ الجابية بالماء، بعد أكثر من ساعة كاملة وأنا أسخّن. كنتُ أقهقه وأتكلّم بصوت عال. أقسم أنيّ لا أعرف ما الذي أصابني، كأنّ سحرا خفيّا اختمر مع روحي. راح يتغلغل في أحشائي مع مضي الوقت. أحضرتُ علبا من قطع الصابون ونزعت عنها أغلفتها. رميتها في الجابية، ولأنّ الرغوة لم تكن بالصورة التي كنتُ أتخيّلها، جلبتُ عصا صاحبة الحمّام، ورحتُ أصنع تلك الرغوة التي حلمت بها للتّو. احساسي فاض كالنبع وعيناي توقدَتا مع ازدياد منسوب الرغوة البيضاء الناصعة. كنتُ أوّد تجريب رؤية الفقاعات الملّونة، وهي تحلّق في الهواء. أمشي على أصابع قدمي، خوفا من أن أسقط وسط تلك الفوضى العارمة. في تلك الأثناء، صفرّت ريح مخيفة، مع أنّ المكان كان مغلقا بالكامل، وتلاحمت أصوات الآدميين و غمرتني.

حالما توقّفت داحيبة عن الحكي. اتّجهتْ صوب المطبخ مجدّدا. وثبتْ لالّهم في مكانها مفزوعة. أخبرتني بأنّها ليست هي، ثمّ غادرت على الفور، وهي تقول. سأطلب العون من سيدي عبد الرحمن الثعالبي. لقد جعلتْها مطيّة للهروب. تركت باب الزقاق خلفها مشرّعا على مصرعيه ورحلتْ.

والغريب في الأمر أنَّ داحيبة لم تسألني عن لالّهم. ولم تبد أيَّ اهتمام برحيلها. كأنّها قابعة خلف حدود العالم. شاردة وتائهة في غياهب المجهول.

- كنت متلذّذة بذلك المشهد الخيالي. ازداد منسوب الرغوة

بشكل خرافي. حتّى وصل إلى السقف. حينما انتبهتُ للأمر. صحوتُ وزحفتُ محاولة الفرار، لكنّ الصابون أحاطني من كلّ الجهات. كنتُ أرى في آخر الممرّ، امرأة ذات نهدين كبيرتين تنتظرني.. لقد علقتُ في الرغوة، ولم أقدر على الحركة. شعرتُ حينما احتجبت الرؤية بأنّ أحدا يدغدغني بشدّة، دون توقّف. لم أعد أبصرني إلاّ ميّتة.

عانقتني داحيبة حينما توقّفت عن الحكي. بكينا سويّا. كنتُ أبكي على حالتها النّفسية التي فيها، وهي تبكي لموتها. هكذا اختلفتْ مشاعرنا، لكنّ انكسارها أضعفني، وهدّ معاقل الصمت في داخلي.

كانت تلك آخر مرّة أرى فيها صديقة دربي داحيبة. لقد اختفت تماما وصعدت إلى العالم العلوي. ذلك المساء تركتني وحيدة في الصالون، وصعدتْ إلى الطابق الأول ولم تعد.

شككتُ للوهلة الأولى أنّها قد تكون مريضة أو ما شابه، وحينما تفقّدتُها لم أجد لها أثرا. تفقّدتُ المطبخ فوجدتُ فوضى عارمة، والمواعين متّسخة كما هي. لم أصدّق ما حدث، كان الأمر أشبه بكابوس مريع.

أوّل ما تبادر إلى ذهني وقتها، أن أذهب بالسرعة القصوى إلى حمام سيدنا. ذهبتُ فعلا إلى هناك، كانت الصدمة التي لم أصحُ منها لحدّ اللّحظة. وجدتُ رجال الأمن يطوّقون المكان. أمام الباب كانت صاحبة الحمّام، جالسة على كرسي خشبي، وأمامها المحقّق يحمل دفترا. كان يسألها وهي تشهق بالبكاء. وتغمغم : "لست من

قتلَها ألا تفهمون".

حالما اقتربتُ منها، اخبرتني بأنّ جثّة داحيبة في الداخل. لقد كان الأمر حقيقيا.

كان المحقّق وقتها يقسّم الورقة الى ثلاث خانات. يتكلّم بصوت منخفض. يحتمل أن تكون قد داستْ على قطعة الصابون، التي كانت موضوعة على حواف الجابية. ارتطمتْ مؤخّرة رأسها بالعين الطينيّة، لذا توجد الضربة في نقطة واحدة من الرأس. يحتمل أيضا أن يكون أحدهم قد ضربها بأداة حديدية، وهذا راجع لأداة الجريمة التي لم نجدها لحدّ اللّحظة. والاحتمال الأخير ربّما تكون انتحرتْ، لأنّ النسوة شاهدنها تفتعل حركات مريبة...ثمّ رسم السيّد حساني خطّا طويلا ودائرة صغيرة وأغلق الدفتر.

الفَصْل السَّابعْ

السرّ الربّاني

VIII- -

مازال وجْهُ الروخو في لحظاته الأخيرة منعكسا في زجاج النافذة قبل أن يُقتل، قبل أن تقتله ترْقُو وفرَّت دون أن تتركَ أيَّ أثر أو دليل. كانتْ في غاية الدهاء والمكر، وقد تتبّعتني كظلّي. هاذا ما أعتقدتُه تماما. أحدّث به نفسي دائما حينما تتلألأ السماء بالنجوم صافية وتختمر مع كياني.

كانتْ محترفة خفيفة كالضوء، ولكن ما كان دافعها؟ ما هو مبرّرها؟ شعرتُ بها تتعقّبنا وأنا أصطحب الروخو إلى ضريح سيدي عبد الرحمان الثعالبي، بعد أن أصرّ في طلبه عدّة مرّات. أخبرني في أوّل مرّة التقيتُه أنّه يريد زيارة الضريح. يتوق إلى ذلك، لأنّ زوجته الدزيريّة الأصل، كانت تحدّثه عنه منذ زمن طويل واكتفى بهذا السبب.

توقّفنا عند جامع كتشاوة. استرجعتُ أوّل مرّة وطأت قدمايَ إليه.

كنتُ متوجّسة خائفة، وكان هو في قمّة الروعة. ولجتُه ونسيم البحر المتوسّطي يدفعني بقوّة إلى الداخل. كانتْ ترْقُو جالسة وحدها عند المحراب تصدّ وجهها عنّي. ترتدي لحافا أبيض مطرّزا. لم تنتبه لي لحظتها. راحتْ تُناجي الربّ كي يهبها القدرة على الدغدغة، على رؤية جنون الآدميين وهم يضحكون.

سلّمتُ على الربّ حينها، وردَّ تحيّتي بصوت جهوري، على لسان شيخ دلف فجأة، رافعا صوته المبحوح حتّى وصل صداه القبّة العالية. كنتُ مبتسمة متباهية، ظانةً أنّ الربّ كلّمني، ولم يمرّ الوقت قيد أنملة حتى أنقشع الضّباب من حولي. استترَ ذلك المجهول خلف روحي، وما عدتُ أسمع مناجاته و نحيبه.

سرنا في الزقاق الأول وقد ملأت رائحة السمك الهواء، حيث الباعة المتجوّلون، يعرضون أقمشة وصناديق للخضر والفواكه وأواني نحاسيّة تشبه التي يصنعها جدّي في دكّانه الصغير. رجال سود يبيعون تحفا إفريقيّة و قطع نقديّة عتيقة.

كان الروخو يكلّم زنجيّا، قال إنّه أتى بعد رحلة طويلة من السنيغال. يلبس عباءة خضراء فاتحة اللّون وقلنسوّة صفراء. راح يساومه على أوراق قديمة مجلّدة بغلاف بنيّ اللّون. كان متحمّسا كثيرا لشرائه. أمّا البائع فكان يردّد بلكنته المتقطّعة: «غالْيَا غالْيَا إنّه مصحف القمر في الطلسمات لا توجد إلاّ نسختان في العالم». لا أعرف ما الذي جعل هذا الرجل متأكّدا ممّا قاله؟ وكيف تسنّى له أن يجوب كلّ أقطار الأرض ويجزم أنها النسخة الثانيّة المتوفرّة؟ ما الذي جعل الروخو

مهتمّا ببضع ورقات ملفوفة؟ أم أنَّ الرموز التي فيه استهوتْه. لمّا سألته عن سبب ذلك، قال بصوت عال: الطّلاسم الطّلاسم.

كعادته نظر صوبي باستعلاء، وكنتُ دائما ما ألحظ ذلك في مقهى طُنطفيل، حينما يسألني عن أشياء أجهلها، أسكت وأحرّك رأسي محاولة تجاهله وتمرير ما يقول. هذه هي طبيعته، مستهتر ومنطو على نفسه. لا يفصح عن شيء. كان كتومًا وغامضًا. على الأقل هذا ما كنتُ ألاحظه عنه.

مضيتُ أتحسّس المكان، بعدما شعرتُ أنّ ترْقُو كانت تتعقّبني. وخالجني شكّ قاتل حيال ذلك، فكنتُ أسدّد نظري إلى كلّ الزوايا والدكاكين.

كانت أطياف المريدين تحوم حولي، وأنا مفزوعة مرتقبة أيّ صوت ينبلج مع هذا الغسق البرتقالي، الذي ظهر في الأفق. من بين الأشياء المبثوثة على الرصيف، رأيت مجلّة داكنة اللّون. بدا من عنوانها أنّها تتكلّم عن قصص الأبطال الخارقين. التي بدأتْ تنتشر في السوق الجزائريّة بكثرة، وحتّى في البرامج التلفزيونية. كان همّها الوحيد أن تربح الأموال الطائلة. أن تجعلَ الآدميين يستمتعون بقراءة قصصها. يبتسمون مع أنفسهم إن اقتضى الأمر وهم يعبرون شارع ديدوش مراد. ليس ذلك عيبا أو نقصا في شخص أيّ واحد فينا، لكن لمَ لم نتساءل يوما عن السبب الذي جعل هذه الوحوش الكرتونية بهذه الفظاعة والتعّطش للدماء، لابدّ أنّ هناك سببا ما أو حكاية مغيّبَة.

أعلم أنّكم الآن تضحكون ملء أشداقكم وتنتفخ عيونكم من شّدة ذلك. تنعتونني بالبلهاء أو المجنونة. لكنّي أصرّ على أسئلتي هذه. فلنقل مثلا هي محاولة لسبر أغوار هذا العالم المتأزّم والمثقل بالفوضى. لقد انطبع في ذهني مثل هذه القصص الغامضة في صغري. روتْ لي حنّا بعضا منها حينما دلفتُ إلى عزلتها الشاهقة عشيّة العيد الوطني للاستقلال وهي تعبّق الدويرة برائحة البخور.

ذكرى حنّا البائدة التي ما برحتْ تنسكب. يتجلجل الحزن إلى الأقاصي. فما عدتُ أرنو إلى همسها في دخيلتي، وذلك الصوت الذي يجيئ من ورائي، تبدّد في الفناء. ما عدتُ أصغي إلى أساريره. أصبحتْ ذاكرتي أشبه بفرن كبير. يحرق كلّ شيء دفعة واحدة. حكتْ لي حنّا بصوتها الغليظ، المترع بالشبق الروحي، عن فتاة تُدعى فاطمة المعكرة، كانت تنفث دخان العرعار من شفتيها اليابستين. تردّد بصوت مبحوح رائع:

«يا بنيْتي هذه حكاية فتاة النّور و الماء المعطّر».

حكاية تتحدث عن فتاة اسمها فاطمة، سمّيت فاطمة لشدة حركتها فاطمة المعكّرة. تقول القصة إنه كانت لفاطمة أخت كبرى. كانت فاطمة نزقة غير مهذبة في سلوكها، وكانت الفتيات تنظرن إليها بعين الاستغراب والازدراء. في يوم من الأيام زارت إحدى الجارات فاطمة وأختها ووثبتْ واقفة، تطلب منهما فحما لتطهو عليه الطعام، وكرّرت الجارة ثلاث مرات الطلب نفسه، ثمّ انصرفتْ.

توغّل إلى دخيلة فاطمة الشكّ. لحقتها بعد انصرافها. وبينما هي تتعقّبها، تفطنت الجارة فالتفتت لفاطمة وقالت لها بوجه ممتعض: أتريدين معرفة الدافع الحقيقي وراء طلبي يا فاطمة؟ شممتُ رائحة الطعام الذي تعدونه فاهتديتُ إلى حيلة علّني أحظى بالقليل منه خاصة وأنا حامل. فوقع شيء في نفس فاطمة يشبه الأسى وعادت على جناح السّرعة إلى أختها تخبرها بما سمعت. قالت لها: يا أختي أعطها قليلا ممّا نطبخ. إنّها حامل وأخشى أن يصيبها مكروه هي وجنينها إن لم نعطها، فرفضت الأخت ذلك رغم إصرار فاطمة. ثم قالتْ لها: أعطها من قسمتي فرفضتْ أيضا. بعد مفاوضات عسيرة اهتدتْ فاطمة إلى حل وسط يرضي أختها وقالت لها. سأتنازل عن حصتي من هذا المنزل الذي ورثناه عن والدينا وسأستأجر غرفة من هذه الدويرة وأُصبحُ بدل المالكة أجيرة، مقابل ذلك تمنحين الجارة المريضة طبق المثوَّم الذي اشتهتْ. قبلتْ الأخت الكبرى الصفقة، وعلى الفور أخذت فاطمة طبق المثوّم إلى جارتها ثم عادت إلى غرفتها. في تلك الليلة حدث ما لم يكن في الحسبان. حين جنّ الليل دخلتْ الفتاتان إلى غرفتيهما لتناما وفجأة سمعت الأخت الكبرى حركة غير عادية في الغرفة التي تنام فيها أختها الصغرى فاطمة.

نهضتْ لتستطلع الأمر، فوجدت أرجاء تلك الغرفة تشعُّ نورا، علما أن سكان القصبة في ذلك الوقت كانوا يستعملون قناديل للإنارة، ونوره خافت، كما رأتْ ماء معطّرا بالبخور ينساب من تحت الباب فبهت، وحاولت فتح الباب فوجدته موصدًا بإحكام.

هرعت الأخت الكبرى إلى جيرانها ليساعدنها في نجدة أختها الصغرى فاطمة.

لمَّا فتحوا الباب وجدوا فاطمة ممدودة وسط الغرفة ملفوفة بإزار ناصع اللون. يداها مخضبتان بالحناء، وقد نُصبتْ شمعتان عن يمينها وشمالها. مع بزوغ شمس اليوم التالي تشاور الجيران لدفنها في مقبرة المدينة، وبعد أخذ ورد قرر كبار القوم أن يدفنوها في غرفتها.

لم تظهر ترْقُو، وانجاب صوتها بعيدا. وفي المقابل استطار صخب عارم. بسبب محاصرة الشرطة لأولئك الباعة غير القانونيين. تراموا بالحجارة كالأطفال. لعبوا لعبة الركض. تبادلوا ألقابا تثير الضحك.

تجمّد ذلك المشهد السريالي في أبهى رونق، ينتظر تعليقا ما، حتّى نطق الروخو ساخرا: «الجرذان تعود إلى مجاريها».

تجمهر أولئك الباعة. صنعوا جدارًا خشبيا من الصناديق والكراسي كي يغلقوا الطريق الرئيسي. للحظات ظهر رجل. صبّ جام غضبه وقد اصطكّت أسنانه. عرّى صدره الأبيض المشعّ. وثبَ قبالتهم. أشرع ذراعيه كي يقتلوه ويريحوه من هذا العناء، والعذاب الذي لا يُطاق.

لكنّهم حرموه من تلك اللذّة الباهرة. كان هذا المشهد السريالي يتكرّر بشكل يوميّ في حي باب الواد، بعد أن أصبحتْ حالة الآدميين مزرية ولم يعد بوسع الحكومة عمل شيء. ندّدوا في وقفة باهتة الحضور بضرورة العثور على القاتل الذي مازال يدغدغ الآدميين دون رحمة.

في ذلك المساء قال لي الروخو وقد أشار إلى دفتره: «لمَ تحدّقين به دائما»

أقسم بالعالمين العلوي والسفلي أنيّ جهّزتُ له طاولة شموع، في الحجرة الكبيرة التي كانت مفترشة بزرابي زاهية الألوان، كما طلب تماما. أحطتُ الضريح بشموع، بعدما استأذنتُ من سي العلجي، حارس هذا المكان المقدّس. لأنّ وقت الزيارة كان يبتدئ من الصباح حتّى وقت العصر. لكن الروخو كان يصرّ على وقت اللّيل. أخبرتُ الحارس أنيّ في حاجة الى راحة نفسيّة، وإلى خلوة حقيقية، وهذا لا يكون إلاّ في المساء. حينما يغادر المريدون والزائرون. أطلب بركة سيدي عبد الرحمن الثعالبي كي يساعدني. كما أعلمتُه بأنّ الروخو قادم معي، وأنّه آت للزيارة وطلب البركة.

قَبلَ ذلك وهو يقول: «يا بنْتي لقد حظيَ بمحبّة إلهية. السرّ الربّاني يلزمه صبر ويقين صادق».

خُيّلَ لي أنيّ سمعتُ هذا الكلام سلفا. لكنّي لا أعرف أين ومتى وقع ذلك؟ سرعان ما انتفضتْ. أخبرتُ نفسي بأنّ أغلب الآدميين يُصابون بهذه النوبات النفسيّة الخفيفة. يتصوّرون أنّهم عاشوا حيوات كثيرة. يُصادفون بعض الأحداث التي مرقتْ بأذهانهم، ثمّ لا يلبثوا أن يتفطّنوا أنّ ضوء الشمس قد غطّى عريّهم ولفّ تلك الردهات النفسيّة العميقة. هكذا كان حالي مع أشياء كثيرة حدثتْ لي، لن أطنب في الكلام عنها خوفا من أن ينفد الصمغ. ويكون عليَّ حينها أنْ أحرق الودحة حتى أحصل على المداد الأسود، الذي أكتب به.

كان شامخا ومشرئب العنق. يجلس قبالتي على الكرسي الخشبي الهزّاز الذي وضعتُه بجانب القبر. كانتْ القناديل متدليّة من السقف بألوانها الآسرة. كنتُ أقول له وأنا أقرب عرجون العنب الأخضر إلى فمي. لقد وفيتُ بوعدي وها أنتَ الآن في خلوة مع الضريح. أمّا هو فراح يثرثر دون توقّف. أخبرني أشياء كثيرة عنه دون أن أطلب منه ذلك. لعلّه استسلمَ وقتَها للجوّ الآسن. توغّل في دخيلته. فباح بكلّ شيء:

- كانتْ زوجتي امرأة لا مثيل لها، وكانت لا تطيق العيش دوني. لكنّي كنتُ رجلا مضطربا.

ناولتُه قارورة القطران التي أحضرتُها. طلبتُ منه أن يشمّه، ويسحب رائحته إلى الأعماق. أبدى إعجابه برائحته. لمّا أغلقتُ القارورة. انتشل دفتره من تحت إبطه، الذي كان يكتب فيه باستمرار، وهو في المقهى. وضعه على الطاولة.

- المسكينة عانت معي كثيرا، لقد خُنتها، أتذكّر تلك الليلة المظلمة جيّدا. حينما مشيتُ بمحاذاة الرصيف، حتّى التقيتُ بأولئك الرجال المشبوهين. الذين كانوا يرتدون معاطف سوداء خشنة. سألوني عن منزل الصحفي الروخو؟ فأجبتُهم بجبن. أخبرتهم عن المكان وركضتُ بعيدا، مع أنّي كنتُ أعرف أنَّ زوجتي كانت هناك.

بينما كان يحكي بشجن وأسى. سطع صوتُ ترْقُو فجأة، كأزيز حاد في أذني، وارتفع إلى سقف القبّة. اختمر بصوت الروخو، وهو يضحك

بمكر. ارتسم ظلّها تحت الكرسي الخشبي. راح يزداد حجما وينعكس في المرايا بشكل مريع. أمّا الروخو فتعذّرتْ عليه الرؤية، وأكملَ قصّته.

- كنتُ أعتقد أنّهم لن يُؤذوها وأنّهم سيرحلون بعد أن يسألوا عنّي. أخذتُ أراقب المنزل من بعيد، تحت شجرة عملاقة. كنتُ كالجرذ الخائف. نعم ولم لا أخاف؟ فهم حاقدون وينوون قتلي والتنكيل بي، بعد أن وسّختُ سمعتهم ومرغّتُ أنوفهم في التراب، يا لي من متحرٍّ بارع ولكن ما فائدة ذلك؟ فجأة انطفأ ضوء الممرّ. زاد قلقي واحتقاني. ثرتُ كوحش يضرب الجدران ويمزّق بدلته اللّعينة.

تحرّكتْ رجلي اليمنى إلى الأمام. بقيتُ حائرا لا أقدم على فعل شيء. عاودت حديثتي قبل أيّام مع مدير تحرير الجريدة، حينما كنتُ أحاول إقناعه بنشر تلك المعلومات السريّة. سألني مطيلا النظر في عينيّ. أأنتَ متأكّد من ذلك؟ أتملكُ دليلاً على ما تقول، ثمّ إنيّ لا أستطيع الموافقة ومن يضمن لي أنّك لن تغدر بي وتتلف تلك الأوراق السريّة وترسل بي إلى الجحيم، حينها سأخسر عملي وسأعرّض حياتي و حياة صغاري للخطر.

ظهرَتْ ترْقُو خلفَه، وهي تحمل نهديها المتدليّتين. احتوتْه بظلّها، ولم يستطعْ الروخو أن يراها. انسكبتْ أطياف القناديل الملوّنة في كلّ الأرجاء. أمّا أنا فقد وثبتُ واقفةً. أشير بإصبعي لها، بعد أن أصابني الخرس، ورشحَ عرق غزير. لكنَّ الروخو راح يقهقه. طلبَ منّي الجلوس كي يكملَ قصّته.

- كذبتُ عليه، اغفر لي أيّها الربّ، لقد كنتُ كاذبا لعينا، فالشرطة لم تعلمني أيَّ شيء، كلّ ما قلتُه كان وهما غلّفني، ولم أنتزع نفسي منه.

راحتْ ترْقُو تقفز خلفه. ترقص خلفَ أطيافه النّورانيّة. أمّا أنا فكنتُ في غياهب العذاب، أستجمع قوايَ كي أنقضّ عليها. أخذتُ الفأس الذي كان موضوعا خلف الألواح.

-ما أنا فاعل حينئذ؟ انطفأ الضوء. توغّلت أشباحهم بسرعة. احتجبَ كلّ شيء. هل سيلحقها أذى؟ كلّها مخاوف لعينة مبطّنة. لن يجسروا على فعل ذلك، أنا أخفي أوراق إدانتهم تحت إبطي. كنتُ أتصبّب عرقاً باردا. غمر كلّ جسمي. بلّل الأوراق المخبوءة تحت ابطي فـتمزّقتْ. لقد انتهى الأمر بسرعة. بدا المجد مجرّد خديعة، اخترعها البشر كي لا يتألّموا، كي يواصلوا حياتهم دون عذاب نفسي. لمَ لا نقول إنّها تضحيّة بزوجة وعائلة في مقابل شؤون أكبر. وهل يوجد شأن أكبر منها؟ في الحقيقة هذا ما صرتُ أردّده كل يوم بعد مقتلها، كي أراوغ نفسي وأخدّرها لوقت أطول. الذنوب التصقتْ بي، ولم يعد بوسعي التخلّص منها.

في لحظة خاطفة استترتْ ترْقُو، وخبتْ أضواء القناديل التي كانت تُقابلني، وأنا متصلّبة أصغي إلى حديث الروخو.

- حينما أتيتُ إلى هنا، سمعتُ أنّ القضاء الفرنسيّ قد توصّل إلى ما كنت أخبّئه من تفاصيل تلك القضيّة. لقد خُتم على قلبي بالتّيه

الأبدي، لم أستطع نسيان ذلك الكابوس الذي يلاحقني ويهزّ كياني. قل لي يا سيدي عبد الرحمان ما الحيلة؟ ما اقترفتُه لا يغتفر أبدا، ولا سلوى له عندك ولو ضربت أخماسا بأسداس.

صمتَ قليلا ثمّ أكمل:

- في بعض الأحيان يجب أن نتجرّد من إنسانيتنا، بل علينا أن نكون أكثر شرّا وأكثر عبثيّة، كي لا نتعذّب. ها أنا الآن في منزل زوجتي كلّ يوم في حيّ القصبة خلف زنيقة العرايس، مسافة عشر دقائق. كلّما فتحتُ باب منزلها لفحتني خزرتها الهادئة، وهي تقف قبالتي في نهاية الدريبة. كم هو صعب أن تعود إلى تفاصيل مكان تعشقه، فلا تألفها هناك. كنتُ أخبرها كلّ يوم أنيّ كنتُ رائيا لعينا، وجبانا بما يكفي حتّى لا أحيَا مجدّدا. لم تبق إلاّ ذكراها البائدة...

لم يكمل ثرثرته، حتّى سطعتْ ترْقُو بنهديها الكبيرتين. أحاطتنا بظلّها العملاق. قفزتُ صوبها، كي أغرز الفأس في جسمها المطّاطي، لكّنها أفلتَتْ من يديَّ. مرّتْ ضربتي القويّة في الهواء جزافا، وارتطم رأسي بالقبر فأغميَ عليَّ. حينما استيقظتُ وجدتُ الروخو ميّتا. لقد دغدغته ترْقُو واختفتْ بالسرعة القصوى. الآن ما زلت أحتفظ بدفتره وأزرار معطفه، التي تناثرتْ في المكان.

الفَّصل الثّامن

ظهور الحنّ والبنْ

بَعدَ الحصَارْ بسنَوات.

--IX

ترامى السحّاب. انسكبَ الصّبح منه، يطلّ من فوهة العتمة. وهو يوشك أن يفقد عذريته النّورانيّة. الشكّ قضم أرواحنا. كبّل الأمل المنشود في النّجاة. والمريدون ما عادوا يدلفون إلى ضريح سيد عبد الرحمن الثعالبي.

الهدأة الباهرة احتوتْ كلّ المعاني العميقة. وهنالك خلف الحواجز الحديدية. صفّرت ريح لافحة. سطع الصدأ في أجزاء الأسلاك المهترئة وما عاد يلمع كسابق عهده. تراءتْ بعض الجثث المتعفّنة متساقطة في الأفق، كأوراق الشجر. لم يعد أحد يأبه بها. رائحتها الوخزة، غمّتْ أنوف الواقفين من العسكر خلف السياج، وكانوا حينئذ يغطّون أنوفهم

بكمّامات ككلاب ضاريّة مفترسة.

الآلاف من الأجساد أصبحتْ قوتا للدّيدان والحشرات الليليّة. تنهشها وتقطّع لحمها المتهالك بشبق جنوني. شبح ترْقُو مازال يحوم حول المفزوعين وقد تجمّعوا في دوائر متحرّكة. تناغمت أصواتهم اللاّهثة مع صوت الخواء المضني، وتلاحمتْ حتّى باتت أقربَ من خيالاتنا المترعة.

في ذلك الوقت. تسارعتْ خطى الآدميين فجأة. تعالتْ جلبة مريبة. وهم يركضون صوب زاوية نائية من الشارع. بدوا وكأنّهم رأوا أجساما هلاليّة تتحرّك في الأفق. أشاروا بأصابعهم. انتابتهم رغبة الصراخ، لكنّهم لم يفعلوا. بقوا فاغرين أفواههم، متوجّسين من الاقتراب منهم. الدنوُّ لازم ولكنّ الحذر لازم أيضا. هكذا تهامسوا بينهم.

كان قد ظهرت سبع مخلوقات، حسان الوجوه، شديدي البياض. تتدلّى آذانهم الطويلة، وأقدامهم أطول من ذراع. يرتدون أسمالا بالية تشبه الجلود. يحملون عصيًّا على شكل رؤوس حيوانات. تماما مثل السّحرة القدامى. يتقدّمهم قائدهم العملاق. يحمل عصًا كبيرة تشبه الثعبان، وكانوا منجرّين خلفه، كأنّهم أقزام صغيرة.

لم يدر أحد من أينَ أتى هؤلاء؟ في بادئ الأمر وقف الجميع محدّقا في شكلهم الغريب، وحركتهم التي بدتْ أبطأ من اللاّزم. قيل إنّهم نزلوا ليلة البارحة من السماء، وإنّهم كائنات ضوئيّة أنزلها الربّ كي تساعدنا على الفرار من هذا الحصار اللّعين.

كانوا يتكلّمون لغتنا. يفهمون حديثنا مثلنا تماما. قال أحد المارة إنّه يعرفهم وإنّهم من الأحياء المجاورة. وإنّ العسكر قد ركّب لهم تلك الآذان البلاستيكيّة الطويلة. لنشر الرعب بيننا.

أقسم آدمي آخر أنّهم مجرمون. أخرجتْهم تلك القوّة المجهولة من السجن، كي يكونوا عيونا لهم في القصبة. أمّا هم فقد تقدّموا وسط جلبة كبيرة. قالوا إنّهم تفاجئوا وانبهروا مثلنا، حينما رأونا بآذان قصيرة، وإنّهم من السكان الأصليين للقصبة. تعجّبوا من إنكارنا لهم. وهم الذين كانوا بالأمس يعيشون بيننا.

كانوا ثلاثة بِنّ[10] وثلاثة حِنّ، بالإضافة إلى بِنّ العملاق، ساحرهم المخلّص. معنى ذلك أنّ الذكور فيهم، ينادونهم باسم بِنّ، والاناث باسم حِنّ، واستنتجتُ ذلك حينما كلّموا بعضهم. يقول الواحد فيهم بِنّ فيلتفتُ أحدهم، ولا يلتفت الاثنين الباقيين. مع أنّ أسمائهم نفسها، لا فرق بينها. غير أنّ فرقًا في موسيقى الصوت، أبانتْ عن اختلاف سحري غير جليّ. في شريعتهم الحروف لا تعني لهم شيئا، أكثر من نوع الصوت وذبذباته العالية والمنخفضة. المزخرفة والمنمّقة. إنّه لأمر مدهش للغاية.

لم يمر زمن طويل حتّى اندمجنا مع بعض دون صعوبة تذكر أو

10 **الحن والبن** مخلوقات سكنت الارض قبل الجن وقبل الانس. يقول ابن كثير في "البداية والنهاية" (1/55 :(قال ابن كثير من علماء التفسير: "خُلقت الجن قبل آدم عليه السلام ، وكان قبلهم في الأرض (الحِنُّ والبِنُّ)، فسلط الله الجن عليهم فقتلوهم وأجلوهم عنها وأبادوهم منها وسكنوها بعدهم"

عراقيل. حتّى أنَّ في وسع المرء حينما يرانا بذلك المشهد المنسجم، أن يعتقد أنّنا عائلة واحدة. ونحن لسنا كذلك أبدا. لم نعرف كيف حدث ذلك بالسرعة القصوى. كان الهواء مغلّفا بغبار سحري أخّاذ لم نستطع مقاومته، ولا التملّص منه. كنّا نحّدثهم بشكل طبيعي، ونحن نعلم في سرائرنا، أنّهم غرباء ولا يشبهوننا.

كانوا يحرّضون الآدميين على التمرّد، وعدم الانصياع للعسكر. يجهّزون الخطط. ينظّمون صفوف الآدميين، و يقسّمون المهام عليهم.

كنتُ أبصر حولي فأرى سحرة الحنّ والبنّ، متفرّقين على كامل السّاحة. كلّ واحد فيهم يشرح للآدميين، مقاصد سحرهم، وطريقته الرّوحية. رأيتُ إحداهنَّ من الحنّ، تُعمل شعوذة متعلّقة بلون الشّعر. كانت النّسوة حولها مبتسمات، وقد اخترعوا لها اسما كهديّة عرفان. لا أعرف من أين استساغوه. كانوا ينادونها زحلوبة.

كانتْ مبتسمة زاهية بذلك. لقد خضعوا لإرادة التمكين والتجلّي. أخبرتهُم أنّ التمكين هو أن يمتطي الواحد فيهم حواسه، ويجبرها على الانقياد للرّوح. وأنّ التجلّي هو مدى معرفتنا لمنابع النّور، واستعمالها في الخير.

أمّا البنّ الذي كان قبالتَها، كان يتكلّم بالإشارة مع الآدميين، وكأنّهم يدربّهم على الرموز بيديه السريعتين والخفيفتين. يفرقع أصابعه ثمّ يشدّ قبضته بقوّة. ويرفع ذراعيه في الهواء عاليا. أمّا هم فكانوا فاغرين أفواههم، منبهرين بما يفعل. أخبرهم بأنّ الإشارة هي الترميز الذي

يغلّف شريعة السّحر. وهي أن نحاول إقصاء اللّسان، كي يكون دون ماهية أو وجود. ولم يمرّ وقت قصير، حتّى تحوّلوا كلّهم إلى كائنات بكماء، تحرّك كلّ أطرافها بتناسق وانسجام. و هو يحفّزهم على المواصلة ويصفّق بشدّة.

حالما أكملوا من تجريب الترميز، أخبرهم أنّ المرحلة الثانية تكون، بأن يُعملوا قانون التجريد. وهو أن يتخلّوا عن أثوابهم. يلبسون أسمالا مهترئة، كي تلتحم أجسادهم مع الطبيعة. يصبح العالم جزءا من الدخائل. أيضا أن يعملوا التجريد الباطني، وذلك بأن يتجرّدوا من غرائزهم. ينزعون عن قلوبهم القشرة الرمادية، كي يصلوا إلى اليقين الأزلي.

في الجهة المقابلة. أحاط آدميون ببنّ آخر. كان يشير بإصبعه إلى بناية مهجورة قرب تلك الحاويات العملاقة التي شكلّها العسكر في صفوف قريبة من بعضها، لتكون مخزنا للمدينة المُحاصرة. كانتْ معبّأة بالمؤن والأدوية. حيث توزّع علب البلاستيك الشفاف بانتظام. فيها قارورة ماء وقطعة خبز وبسكويت وفواكه مجفّفة والوجبة الأساسية تختلف من حين إلى آخر من لحم دجاج وسمك وقارورات حليب وغيرها.

طبّقتْ السلطة العليا قرار تزويد الحبس بالطعام بعد أن أُغلقت مخبزة الشيخ سي زهّار الواقعة بمسافة لا تبعد عن السوق ومخبزة لالة لونجا الواقعة داخل القصبة، وأقفلت كلّ الدكاكين.

حينَ اقتربتُ منهم. سمعتُ ما كان يقوله لهم. اليقين هو القوت الذي يجب أن نسعى إليه من اللّحظة. هذا المخزن لا معنى له. الأكل والشراب مجرّد خديعة، ابتكرها الأوّلون كي يمنعوا الآدميين من الدخول في حلقة الخلق. صدّقناها وآمنا بها، لأنّنا لم نجد البديل لذلك. عشنا في الأزل، قبل آدم بأكثر من ألف عام. لم يكن هناك نبات ولا حيوان. كنّا فقط نمتطي الريّاح. نُعمل الاستتار بيننا ونتحلّل في التربة والماء. نخرج منها طينا لازبا كلّ عام تقريبا.

بعد تلك الحلقات الرّوحية، التي كان البنّ والحنّ يحاولون فيها إيصال شريعتهم الجديدة، إلى عقولنا الهشّة. وقف السّاحر المخلّص على سيّارة قديمة. راح يعلن عن تأسيس مجتمع من الكائنات الجديدة. تكلّم في البداية بلسان صارم، فعرض قانون الإصطلام. وهو إبادة كلّ الآدميين المقهورين، ونفي إرادتهم العاجزة والقاصرة، كي يتسنّى لنا أن نُعمل طاقاتنا، والقدرة الكامنة في الدخائل على حدّ قوله. ثمّ تكلّم عن الاتّحاد. قال إنّ وجود أيّ شيء في الكون متعلّق بوجوده مع سائر الأشياء، وإنّ أيّ كائن ليس له وجود خاص به وحده. بل هو معدوم، لأنّ حواسه حينها ستكون منعزلة عن العالم.

لقد عرفنا السرّ المكنون. أصغينا إلى خطاب البداية من السّاحر المخلّص، الذي كان ظلّه يزداد طولا في الأفق. وهو يلقي علينا شريعته الرّاسخة. وجّه إلينا أسئلته مستنكرا ردود أفعالنا. كان يناقش فكرة الوجود الأوّل. نفى كلّ معتقداتنا السالفة، وعاتبنا على صمتنا الطويل. كان يصدر ترانيم سحريّة مذهلة، يصعب التملّص منها.

محا ذاكرتنا في لحظة خاطفة، وحشاها بشريعة جديدة، مليئة بالحسّ والترميز. عالم مشفّر هذا الذي جاؤوا به من عالم العليّين أو التحتيين. قطعا ليسوا آدميين ولا جنيّين. البعض همسوا في أقاصيهم. بأنّهم آدميين أصابهم المسخ والتشويه.

لكنّ السّاحر المخلّص كان قائفا محترفا. لقد أفصح عن مكنوناتهم. أشار إليهم بإصبعه الغليظة. عاود ما أسرّوا به. ابتسم وصدح صوته عاليا. هل الآدميون يقرؤون ما تخفي الصدور؟ وفي لحظة عجيبة تحرّك لسانه بسرعة كبيرة. يشير إليهم ويعرّيهم عن حقيقتهم. لقد كشف كلّ ما كانوا يفكرّون به وما خلف ذلك. وكان في كلّ مرّة يقرأ دخيلة أحدنا، فيطلق الواحد منّا دهشة عالية الصوت.

لماذا اختفتْ آذانكم أنتم؟ أليس هذا ما ينبغي أن أسألكم إيّاه. أتعرفون لماذا يحتجزونكم هنا؟ أنتم ليسوا آدميين مثلهم. لا يحبّونكم. يريدون لكم الموت والفناء. أعظم انتصار لي أنّي ما زلتُ محافظا على هذين الأذنين الطويلتين. لولاهما لاستطاع الموتُ أن يفتكَ بي. أنا لا أموت أيّها السّادة. مثلي مثل كلّ الجِّن و البنِّ الذين معي.

لحظتَها انطلقتْ أهازيج عاليةٌ، وصدحتْ بها الجدران عاليا.

كلّ من له أذنين طويلتين، لن يموت...لن يموت.

التفّوا حوله. غنّو بشجن. لقد أعلنوا له الولاء و بايعوه على خلافة القصبة العتيقة، أملا في أن يخلّصهم من هذا العذاب الأبدي. اعتلتْ تلك المخلوقات الغريبة منصّة عالية من الصناديق. استطالتْ

أذرعهم بتوازٍ إلى الأمام. تبعهم الآدميون وهم مكبّلون بذلك السحر الغريب، واصطفّ العسكر من خلف الحواجز العملاقة، مبهورين مندهشين، ممّا يحدث.

الموت للوحوش الآدمية.

مثل مارد خرافي. أعلن عن خلوده الأبدي. حرّك أذنيه المتدليّتين منتشيا. متحديّا ترْقُو، والظمأى من حوله يحومون. ها هو قد دلق على رأسه قارورة ماء ونفض رأسه فوق شفاههم اليابسة. عيناه الكابيتان تحدّقان إليهم، وهم صغار يتقفّزون حوله، هدّهم التعب. عبثتْ الريّح الباردة بأجسادهم النحيلة البائدة. ها هو يصرخ عاليا. ممتطيا كبوة جنونه، ومشعلا جذوة روحه الأرجوانية.

مثلوا بين يديه والجثث المتعفّنة حولهم، تكاد تلتهمهم. حلّت عليهم دائرة الموت، وراحت تتضاءل، وتُقصّ من أطرافها. ولا منجد لهم و لا مغيث. سوى أن يذعنوا لغوايته المبهمة. ها هو يقول لهم اسجدوا لي كيما تنالون محبّتي ورضاي.

لا مفرّ من العناد. لا ترنّح لشقاوتكم. لا عبث مع الايقاع الذي راحت تتضاعف موسيقاه. لا فجيعة أكثر ممّا حدث لكم. فيفعلون دونما تردّد. ينكفئون على أعتاب العتمة منكسرين. يرميه أحد الآدميين بحجر دون أن يصيبه، فتشهق ضحكته عاليا، وتصدح في آذانهم كلماته الرنّانة.

لستُ طينا أيّها الآدمي الأبله. ينتصر لنفسه من حقارتهم. يحرّضهم

عليه، فيهرعون صوبَه كالوحوش الضارّية، تقطّعه إربا إربا. ترفسه بأنيابها الحافية. لقد انطفأ وهجه و خبا في لحظة خاطفة. وقد دحوه إلى زاوية نائية، حيث تقيل ترْقُو.

قدّموه وجبة صائغة، دونما عناء وتعب. ثّم عادوا إليه مسحورين بألقه الذي استكان في ذاكرتهم الفتيّة. وكان يختمر في عقولهم رهان أخير، به سيتحقّق الخلاص أو سيتأكّد الضياع الأبدي.

فاعتقادهم بأنّ السيّد المخلّص سيلاقي ترْقُو. ملحمة بحدّ ذاتها. كانوا ينتظرون المنازلة في زمن قريب. تقف حينها ترْقُو بثدييها الشفّافتين وجسمها الكاويتشي والساحر المخلّص بأذنيه المتدلّيتين وجسمه العملاق. ويبدآن القتال بضراوة غير مسبوقة.

يمتطي قرصُ الشمس تلّة عالية. يبتسم منتشيا بروعتهما، وهما يقفزان فوق الأسقف والبنايات الشاهقة. ينتهي بهما المطاف إلى جامع كتشاوة. والمريدون من حولهم يركضون.

يقفزان إلى زرقة المتوسّط المالحة. تصطفّ أسراب النورس واقفة متصلبّة. تعود السفن إلى الميناء، وقد رأوا أنّ الماء راح ينضب. لا جدوى بعد الآن لألواحهم المركّبة. يعود الزمن إلى الوراء، فيعلق حسن خرتاجي بقاربه الصغير في عرض البحر. هو يفتح فمه فاغرا، منبهرا بهما، ماثلين أمام عينيه. فينسى جزعه لوفاة ذبيحة قلبه وأميرته خداوج. ويصرخ فيهما بأن يتوقّفا عن القتال.

قبل أن تبيد بهم الأرض وتطفح اليابسة بالماء. ترتعش الحياة

متملّصة من قشرة المعاني العميقة.. الموتى يفيقون من غفوتهم. لا يدرون من يصرع الآخر. لكنّها كفايتهم وغاية مطلبهم. فهل حقّا سيكون ذلك.

الفَصْل التَّاسع

التحوُّلْ.

-X-

ها هم يسكبون الزيت، على تلك النّار العظيمة التي أضرموها وسط المكان، ها هم الآن ككائنات مستنفرة، تجمع أكوام الحطب والأبواب المهترئة، وكل شيء يقع على أنظارهم. حتّى الجثث المتعفّنة التي راحوا يجرّونها، كيما يتخلّصوا من رائحتها الكريهة. كانوا يعتقدون أنّه الاشتعال الذي يبتلع كلّ شيء، بما فيها أدرانهم ومعاصيهم القديمة. ها هو يصيح فيهم، وقد صدحت المواويل الحزينة من أفواههم. انتشرت كالتمائم السحريّة في الأفق، فاحتجبتْ الظلمة في أعينهم، وسطع لهيب الانتصار الوهمي.

تراقصتْ نساؤهم عاريات، تكسوهن قطعة قماش واحدة، مثل قبيلة آدم الأزليّة. لقد حنّ الزمن إلى الماضي، واستدار عائدا، متوجّسا من التيه والضياع. كانوا يتنطّطون حول محيط دائرة الاحتراق،

تماما كالبشر البدائيين. ها هو في ذروة زهوه، متربّعا فوق شاحنة قديمة. عصاه الخرافية إلى جانبه، يحرّكها بتؤدة، ورأسه يرسم دائرة جيئة وذهابا.

يرقص ملء روحه. يطرب بهذا الدفء الذي استطار فجأة ولم يصدّقه. وللحظة يقف عاويا كالذئب الجريح، فيقلّده المريدون. يعوون ملء حناجرهم القصبيّة، ويفزع العسكر خلف الأسلاك. يطلقون البارود خوفا وجزعا، من هذه القبيلة التي تحوّلت فجأتْ ومُسختْ. تنشبُ بينهم حرب حامية. وقد كانوا أخذوا مخابئهم، وسط ذلك الدخان الطّاغي.

راحوا يرمون العسكر بشعلات من النّار. كان المشهد أخّاذا حينما تطايرتْ في انسجام وانتظام. كأنّها نيازك السماء. بل جنود الظلام، تحمل تمائم الغضب، وتفجّر الأعماق نارًا وحممًا. كان العسكر يُصدرون إشارات صارمة. صوّبوا بنادقهم نحوهم، لكنّ الرؤية تعذّرت، ولم يعد بوسعهم أن يروا سوى لون حليبي، وبقع النّار الحمراء المتطايرة كالشّرر.

انتشر وابل من عبوات الرصاص من كلّ الجهات، لكن دون طائل. لأنّ هؤلاء الآدميين، قد استحالوا إلى سحرة ومخلوقات عبثيّة، لا تستسيغ الموت ولا تأبه بقوانين الطبيعة المتكلّسة. استطار صدى قهقهة عاليّة، بعدما غلّف الصمت أسطح البنايات وتمطّى. كأنّهم كانوا يسخرون من عجزهم الباهت وسذاجتهم البدائية. بعدها صدحتْ أصواتهم كالدندنة العالية، حتّى احتوتْ العسكر، وأصابتْ

أنفسهم الضعيفة بالقلق والاضطراب النفسي.

رفع أحدهم ذراعيه المتوازيتين إلى الأمام، راميا بندقيّته. راح يطلب الرحمة والمغفرة. استدار إلى أقرانه. شرعَ يقنعهم برغبة جامحة، غمرته وهزّتْ بدنه الضئيل هزا. وما كاد ينزل من درج الحاجز الحديدي، حتّى أصابوه في رأسه، فسقط قتيلا. توالت محاولات الانسلاخ الروحي، وأغوارهم تعصف بهم عصفا.

كان السّحرة يرغمونهم على اقتتال عنيف، لا خلاص منه أبدا. توالى إمداد العسكر تباعا. دوّى جرس عظيم. تزاحم المئات من العسكر برشاشاتهم، واحتلّوا المكان. بعد أن قضوا على أقرانهم المتلبّسين بطلاسم السّحر. وأشعلوا الأضواء الكاشفة، حتّى يفرّقوا السّحرة.

مرتّ ساعة من ليلة مسخهم العجيبة. تراءى في الأفق أحدهم بساطوره يقطّع جسدا إلى قطع صغيرة. يقترب منه أقرانه المفجوعين. لكنّهم حالما يلتفتُ إليهم ويحدّق صوبهم، يُسحرون بألقه الوهّاج. كأنّه قد أسرَّ لهم إحساسا غريبا، التقطه من سيّدهم المخلّص.

ها هو الغيهب المتكلّس في الأقاصي، يودي بهم الى أكل آدميتهم. لحم لذيذ ومواويل ساحرة عجيبة، فمن يوقظ المجذوبين من ثقب الزمن الذي راح يتمطّى فجأة، كبياض منبثق من شقّ ضيّق. أطلّ عليهم من زاوية نائية، كلب أبيض جائع. راح لعابه الأصفر يتقاطر. بدا الزمن فيها واقفا، لا يتقدّم ولا يتأخّر. تصلبّ المريدون منبهرين بوجوده بينهم، وكأنّهم قد أنابوا إلى أرواحهم العميقة.

لكنّ المخلّص السآحر، صرخ عاليا: «إنّه كلب الخلود الجائع». فهرولوا إليه كالوحوش الضّارية، من كل حدب وصوب. مزّقوا أطرافه، في مشهد يندر وصفه. عادوا إلى النّار الهائجة، وهم يتمايلون. يرتجفون ممّا صنعوا للتوّ. ثم جلسوا إلى خلواتهم، وسط سكون الخواء، يؤدّون شعائر القبيلة. كلّ المباني اهترأتْ وخرجتْ منها أسلاك صدئة. تهاوتْ الظّلال الشاهقة. كفّت أصوات الآدميين عن المكائد. لم يعد وجود لأبواق السيّارات. اختفتْ هياكل السفن العملاقة للأبد. عصر القبيلة ومضَ مجدّدا، وراح الكلّ يهمهم في تلك الليلة، مشوّها بإحساس مجهول.

انطرحوا على الأرض يتلوّون من مرونة الطيّن، التي أصبحتْ كحمأ مسنون في الدواخل. أوشكوا على الاستسلام للجوهر الآسن، لولا أنّ سيّدهم المخلّص، راح يطوف بالنّار مدندنا، محرّكا ذراعيه المتوازنتين يمينا وشمالا. فاستفاقوا مفزوعين، مكبّلين بسحر الطيّن الأسود، كأنّه قد أنقذهم من فناء محتّم.

راحوا يتبادلون الصياح، وهم يركضون بين الأزقّة الموحشة. كان الصدى يتجلجل ويتوغّل إلى معاقل الصمت، إلى البنايات المهجورة والآبار التي أغدقت. يتبعه صفيرهم الحاد إلى الميناء وجامع كتشاوة والسوق. يصعد حتّى أعالي باب الجديد. يتضاءل ويستحيل إلى فراغ متخثّر. ثمّ أحاطوا بالنّار العظيمة، وقد شعروا بتلك القوّة التي سرتْ في أجسامهم، كسائل خرافي مجنون.

مثل الأسهم عادوا إلى مكانهم، وفي أقلّ من دقيقة واحدة. كانوا

يغنّون بشجن ويرقصون. يقفزون عاليا جداً، وكأنّ نوابضا مطّاطية في أرجلهم. لقد تخطّت أنظارهم الحواجز العملاقة، وشاحنات العسكر. اجتازتْ أبصارهم ما خلف الديّاجي. تلصّصوا على عالم شفّاف، لا يشبه عالمهم.

رأوا أنوارا ساطعة وأجساما حديديّة، تتحرّك بسرعة قصوى، ومرايا كثيرة ملتصقة على البنايات الشاهقة، وأنفاقا تحت الأرض وجسورا معلّقة في الهواء، وحشرات حديدية، ترفرف عاليا متّجهة نحو الجنوب. وآدميين آليين يتحرّكون على أرصفة الطريق. يتبعهم آدميون بلوحات تحّكم عن بعد. كأنّكم كانوا يتبارون ويتسابقون. وحينما حاولوا أن يجتازوا حواجز العسكر عبر قفزاتهم العالية، اصطدموا بجدران زجاجيّة غير مرئية. باءت محاولتهم بالفشل. تأكّدوا لحظتها أنه قد حُكم عليهم بالأسر، ويكفيهم عناء المحاولة، والتحديق في تلك الكائنات الضوئية.

لكنّ أحدهم استخلص أنّ عليهم الحفر. نعم حفر أنفاق تحت شرايين الأرض الواجمة. الهروب من هذا العذاب النفسي العميق. همهمَ الكلّ مجتمعين حوله. أعربوا عن زهوهم باكتشافه العظيم. كفّوا عن نزقهم وعن تصرّفهم كحيوانات معتوهة. اعتلى المنصّة رئيسهم المخلّص، وأعلمهم بقراره في بداية الحفر دون توقّف، حتىّ يصلوا إلى العالم الشفّاف الذي رأوه.

الفصلْ العاشِر

ظلاَل الرُّوحْ.

-XI-

في كلّ أرْجاء السّاحة ظهرت بقع كبيرةٌ بيضاء قاتمة، ذات اتّساق هلامي كانت تبدوا كالشرانق. لقد احتلّت كلّ المكان، وسط ذهول العسكر. أمّا الآدميون فكانوا يشهقون بالضّحك ساخرين. في حين كان الأولاد يتزحلقون على أسطحها اللّزجة المتماسكة. يغمرون أنوفهم المدبّبة الصغيرة وسطها، كأنّهم يتلذّذون بطعمها الواخز، ورائحتها الكلورية الطاغية.

فما كان من المخلّص السّاحر إلاّ أن جمع أقرانه، والتفّ الآدميون حولهم. متفائلين بذلك المشهد المروّع الذي أمامهم. «حان وقت المعراج السماوي». هكذا قال لهم متكاسلا متراخيا، وقد فغر فاه، كأنّ النعاس غلبه. حينها أمرهم بالاحتجاب تحت المباني الشاهقة، كي لا يصيبهم الشقاء الأبدي. ففي شريعته التي ابتكرها. أنّ هذا

المعراج سيكون في إثارته القصوى، حالما يكون قرص الشمس في كبد السماء، وتكون حامية على الأرض. لمّا اشتدّ وقع الشمس على الأرض، بدأت تلك الشرانق بالفرقعة بصوت عال، وانتشرتْ معها مواويلهم الحزينة في المدينة.

دخل العسكر إلى مخابئهم. ازداد حجمها بصورة فظيعة. بعض الآدميين لم يصمدوا أمام ذلك السّحر الوهّاج. صعدوا عبر سلالم البنايات إلى الأعلى. بدأوا بالقفز واحدا تلو الآخر، وسط صراخ ساحرهم المخلّص. «أن ارجعوا ولا تجبنوا، فالعالم الشفّاف يكاد ينبلج، وما عليكم إلاّ الصبر».

استجاب بعض العالقين في الأعلى إليه. هبطوا مسرعين. هووا في الأرض متكوّرين كالقطط المفزوعة. استمرّتْ الشرانق في الفرقعة والتمدّد في المكان. كانت تزداد حجما. تفوح برائحة خانقة لا مثيل لها. ولمّا بلغت رغوة النّطاف منتهاها. تعكّرتْ بالأشعّة الحامية. تبخرّتْ الرغوة واستحالتْ إلى لون طيني صلصالي. كبّلتهم الدهشة. احتواهم إحساس مجهول بالتحوّل.

تغلغل إلى أعماقهم طنين حادٌ، فخرّ بعضهم مغشيا عليه من الإعياء النّفسي. انطرح بعضهم يتلوّون، من عذاب روحي غامض. ثمّ ما لبث أن سكن كلّ الكون، وهدأتْ دواخلهم معها. قرّتْ أعينهم بمشهد الشرانق الآسرة. بدتْ مشعّة دائرية المحيط. مشى المخّلص الساحر حينها، وتبعَه الآدميون. راحوا يحصون عددها. لاحظوا أنّ شرانق منها ذات لون أزرق. وحينما سألوه عن ذلك. أخبرهم أنّها

الأنثى الشفّافة. هكذا أطلق عليها هذا الاسم. وللحظةٍ صرخ أحدهم في الجهة المقابلة: "إنّ عددهم ألف".

دوّن المخلّص الساحر عددها في دفتره، ومضى صوب الآدميين يشرح لهم طريقة حياة هذه الكائنات الشفّافة، التي ستستحيل إلى أجسام لا نعرف ماهيتها. حينئذٍ أقسم أنّهم لن يكونوا نسخا متشابهة قط، وأنّ كل شرنقة ستُخرج كائنا مختلفا في الشكل. كان بعض المحيطين به من الآدميين غير مقتنع بفكرة تحوّلها، وقالوا إنّها أخبار كاذبة، سرعان ما تتلاشى.

عقدوا الرهانات عن ماهيتها، لكن كان عليهم الانتظار أيّاما أخرى حتّى تفقس هذه الشرانق التي تجمّدت، وأصبحَ سطحها المتجمّد أشبه بالشّمع.

في اللَّيل. على ضوء القمر الشّاحب. انتشرتْ المواويل السحريّة. وقفوا حينها مشدوهين. ماثلين بين يديه، وفي عيونهم المتكوّرة، رغبة في الحياة والتشبّث بها. الفجيعة هي التي حوّلتهم إلى مخلوقات بائسة. ونضوب الماء هو من جعلهم وحوشا تصرخ ملء أشداقها، ساخرة من عبث الأرض التي صارتْ تنزف دما وموتا.

«اجمعوا الهراوات و الفؤوس الحديديّة سنبدأ الحفر». هكذا قال لهم ساحرهم المخلّص، وهو يطوف بهم. أذناه متدليّتان كمؤشري ساعة، بدأتْ للتوّ في النبض ببطء شديد. تتلاحم الأصواتُ البائدة. تتحايل المسالك السريّة، حالما يصرّون على هذه المجازفة الكبيرة.

مجازفة ربمّا تودي بهم إلى العدم والتيه، أو سيعانقون من خلاله عالمهم الشفّاف الذي رأوه ليلة البارحة، وهم في إثارتهم القصوى. ما زالوا لا يصدّقون كيف نبتتْ لهم تلك النوابض المطّاطية، وجعلتهُم يقفزون عاليا، ويمرحون بزهوٍ لا مثيل له.

مخلّصهم السّاحر مازال يرّدد. «النبوءات قادمة لا محالة لكن لا تتعجّلوا». هذه الشريعة الغامضة التي ابتكرها هذا المارد المتحوّل، جعلتهم يهجعون. يؤمنون بأنّ زخّات المطر ستسقط ذات يوم. ستبّلل ذاكرتهم المعتّمة. لا جرم أنّ ذلك اليوم آت لا محالة.

لقد ذُهل العسكر بأعداد الحفر التي حفرها الآدميون. والشرانق التي كانت تشعّ حتّى وهي في الدّياجي.

رأوهم داخلها. ينبشون التراب بأظافرهم الطويلة. يحثونه على رؤوسهم، كأنّهم يقدّسون حبّاته المسبوكة. يبيحون الاغتسال به، كي يجعلهم ملفوفين بلون ترابي قاتم. حتّى بدوا وكأنّهم أمواتٌ قاموا من قبورهم، مفزوعين من فراغ مجهول، يصّدهم خلف الظلمات. لكنّ ظنونهم خابتْ، حينما هرعوا إلى تلك الجثث المتعفّنة، وراحوا يدسونهم في الحفر، دون أن يطمروها بالتراب.

اهتدوا إلى هذا من كلام سيّدهم المخلّص ليلة البارحة. كان المكان يبدو كمقبرة مفتوحة على السماء. هنا يلتقي العالم السفلي بالعلوي، وعالم الأحياء بالأموات. يصافحون بعضهم بعضًا. تلامس أذقانهم أذقان بعض. يحتفلون في الليل بالرقص خلف تلك النّار

العظيمة، التي يضرمونها كلّ ليلة. يُطلقون مواويل غنائيّة، أشبه بلغة جديدة ابتكروها للتّو.

كانوا كالأشباح الشاحبة وهم يحفرون. لا جرم أنّه خلاصهم الوحيد من هذا التّيه والصداع الزمني المتكلّس. راحوا يتداولون على المكان، الذي أشار لهم فيه سيّدهم المخلّص، بحرابه الملطّخة بالدماء. غرزه في بطن جثّة متعفّنة لولد. أخبرهم أنّ دماءه آسنة عذبة. وأنّه سيتيمّن بقطرات دمه، قبل أن تتدنّس، وتستحيل إلى دم كاذب. مشى بحرابه وهي تقطر. ترسم خطّا متقّطعا، خلف مخازن الطعام، كي لا يراهم الجند ويكتشفوا مكيدتهم، وخطّتهم السريّة المباركة.

قسّمهم إلى مجموعات صغيرة. مخلوقات ليلية حافرة. لا تستسلم لضوء القمر السّاطع ولا لصوت ترْقُو الملعونة. «احفروا دون توقّف. العالم الشفّاف أمامكم». هكذا كان يتصايح سيّدهم المخلّص. يلتفتُ أحيانا إلى الخلف. يستنشق النَّسيم المتوسّطي المسكر، حتّى تخرج عيناه من محجريهما. تهتّز أذناه المتدليّتان بسرعة. يستقي من معين الوهم قوّته الهائلة وعنفوانه.

كان يقرأ متنبّئاً ما يجول في نفوسهم المهترئة، حتّى قبل أن ينبسوا بحرف واحد. وحينما يصيبه الضجر والفراغ الموحش، يتوغّل في أزقّة القصبة. يكذب كذبته المشهورة: «لقد صعدتُ إلى أبراج السماء العالية. توسّلتُ لكم عند الرب الأعظم أن يساعدكم، وقد بشّرني بخير قادم لا محالة». ثمّ يطلق ضحكة هادرة.

يطفر في عينيه أسى عميق، وآهات مخنوقة. يعبرُ الممرّات الضيّقة والنتوءات الصغيرة، هربا من انعكاس روحه، التي تسطع فيها كلّ مرة. كانت دائما ما تستدرجه على الاعتراف بين أيدي الآدميين، أن يبوح لهم بأسرار مهولة، يخفيها عنهم. لكنّه حينما يمعن في عيونهم المترقرقة بالألم. تسكن روحه وينعزل إلى خلواته. يبتهل مطوّلا على أسقف البنايات المهجورة. يتنطّط بين الأسطح كالشبح الذي يستيقظ من عالمه المخيف. كالذي يصحو ضميره فجأة، وهو يُفزع ولدا صغيرا. بريء الملامح. أسود الشعر. عيناه واسعتان.

يرتجف ويئنّ ويسقط أمام مرآة الأميرة خداوج. يناجي روحها الأسيرة هناك. لا أحد يعلم مكانها غيره. وحده من يعرف هذا الطريق المفضي إلى العالم الحقيقي. لكنّه لا يجسر على البوح. هالَه ذلك الشعور، وهو يتوغّل داخلها. سمع ضجّة الانكشاريين وهم يهاجمون قصر الدّاي، وصوت الأمواج المتلاطمة، وهي تقذف حسن خرتاجي بعيدا عن الميناء.

فهم سرّ كتابة الألخيميادو العجيبة التي كان يخبّئها المورسكيون منذ القديم ولكنّه لم يقل لأحد. كنتُ أنا الوحيدة فقط من باح لي بذلك ولا أعرف لماذا. كان يستتر خلف تلك الشاحنة المهترئة. ينطرح على الأرض. يقول لي. «وهج النّار لا يرتسم في عينيك كالباقين، ألا تؤمنين أنّني المخلّص الساحر؟»

يعقبني بنظرات متوالية. يردف معلّقا على رقصهم ونزقهم. «أترانا نتماثل للشفاء !» فأتساءل بصوت متهدّج ساحر. «لكن من أيّ شيء

نُشفى؟» فيصرف نظره عنّي. تتنصب أذناه عاليا. يغمغم مع نفسه. يبدأ بالحكي عن المرآة التي أذهلته. حفرتْ في ذاكرته شريعة السحر التي يتّبعها الآن. حينما يقترب الآدميون، يتجهّم وجهه. يتظاهر بقوّة لا مثيل لها. يزيد حجمه فجأة، كأنّه ينتفخ كالطاووس. كان يعّلمني كيف أتنكّر خلف ظلال الروح. أن أتخفّى عن الأبصار المتلصّصة، لكنّي كنتُ عاجزة عن تصوّر كل ما يحدث.

الفَصْل الحَادي عشَر

العالَمْ الشفَّافْ.

-XII-

في الليلة السابعة من الحفر. حينما كانوا يمارسون بكائية الحياة، سقط أحد الآدميين في نفق انفتح فجأة. انتشر منه صوت الماء المتجلجل. كانوا قد وصلوا أخيرا إلى شبكة المجاري المائية. كانت واسعة والأنوار ساطعة بشدّة. والأرض مبلّطة بالأسفلت الأسود العتيد. تعالت صيحاتهم عاليا. حملوا المخلّص الساحر. راحوا يرمونه في الهواء، وعيونهم تترقرق بالدمع. يتراقصون بإثارة قصوى. يغنّون مواويل شجيّة. راحت تتمطّى وتنتشر مع ذلك النفق الطويل.

ارتموا في المياه المعكّرة، يغتسلون بها ويتراشقون. أطلقوا صيحات عالية، دوّتْ في كلّ الأرجاء. لقد مرّ وقت طويل على الجفاف، وأغدقت كلّ العيون، وتدنّستْ أجسادهم، واتّسختْ ملابسهم المهترئة. ها هم الآن يشتهونَ سطح الماء الآسن. يلثمون سطحه

بحرارة شديدة. يدلقونه على رؤوسهم، الغارقة وسط أشعارهم الكثّة.

لأوّل مرّة رأوا نملا زجاجيا، يدبّ في صفوف طويلة لا نهاية لها. كانوا يحدّقون داخل أجسامها الشّفافة، ويقرّبونها أمام أعينهم. يشهقون بالاستغراب والدهشة، ممّا في داخلها. والمخلّص متعلّق في سلّم حديدي. يصرخ كالوحش. النبوءات قادمة لا محالة. وبعدما اجتازت جيوش النمل مسافة أقدام وقد نأت عنهم، ومضتْ بأضواء مختلفة غير متناهية في العدد. كان المشهد حينها مذهلا وعجيبا. حتّى أنّ بعض الآدميين أغمي عليهم من الرهبة والخشوع.

أخبرنا حينها المخلّص أنّها تبلّغنا السلام، وتعطينا وعدا أبديا، بأن لا تنهش لحومنا حينما نفارق الحياة، ويبلعنا وحش الموت المخيف. في تلك الليلة الأسطورية، أعلن المخلّص سطوته وجبروته. أقام حدود دولته الصغيرة بعيدا عن العالم العلوي، المليء بالقتل والظلم والاستبداد. قطّع جزءا من قميصه الأحمر المعفّن، وعلّقه في السلّم الذي كان يرتقيه. انتشر عواء حاد في النفق. تمدّد في باطن الأرض حتّى وصل إلى الأقاصي البعيدة. حينها أمرهم المخلّص أن يجلبوا المؤونة والمتاع قبل أن يتوغّلوا داخله.

الخلاص في منتهى هذا النفق، لكن علينا الحذر. هكذا وصّاهم المخلّص قبل أن يحلّ الثلث الأخير من الليل. مشوا كأشباح بائسة، وظلالهم العملاقة تكاد تلتهمهم، والأصوات المتلاحمة التي خلّفوها وراءهم تلاحقهم لحظة بلحظة. كان بعضهم ينهل من ماء المجاري لاهثا متعطّشا، ولا يأبه لنتنها وعفنها، والآخرون يلاحقون حيوانات

صغيرة، أشبه بالجرذان. أذنابها طويلة نوعا ما، وأجسامها صغيرة جدّا. يقتلعون رؤوسها الجلدية بأسنانهم. يقطّعونها بشراسة و تعطّش. وسيّدهم المخلّص يقول لهم: «لا تأكلوا الأذناب». ثمّ يمسك بأحدها ويرميها على الأرض، فيتحرّك كبوصلة سحريّة. يضحك ويأمرهم بأن يضعوها في أكياسهم. كي ترشدهم حينما تشتبه عليهم الممرّات، ويتوهون في أعماق العالم السفلي.

كانوا منجذبين نحو ذلك الألق المبهم، بأسمالهم الخرافيّة. أشبه بهجرة سحرة المعبد القدامى، إلى أرض النّور والروح. يحملون خيالاتهم الباهرة المترعة، وزهوهم العبثي المجهول. كانت الظلمة حينها تتآكل شيئا فشيئا، كلّما اقتربوا نحو ذلك الصوت المفاجئ، الذي انهمر على أرواحهم بغزارة، وأحاطهم من كل جانب.

صوت الجوهر هو ملاذهم الأوحد والأخير، وجذوة النّار التي تلهب دواخلهم، و تسري في عروقهم الأزليّة. كانت الرؤى تحلّق في كلّ الأرجاء. تزدحم على أعتاب ذاكرتهم السرمديّة التّالفة. تتوغّل إلى القاع الفاغر، ثم تتطاير كفقاعات صغيرة وتنفجر. وجدوا حينها آدميا منهم مقتولا، بعدما ارتفعت الجلبة، وضجّ المكان بالصخب و المواويل الحزينة.

لطالما لم يفارقهم ذاك العذاب المبطّن، وحتّى وهُّم في العالم السفلي الحالم. كان جسده ملطّخا بدماء، ولحمه مطرّز بالعض والنهش. شياطين الظلام تلاحقنا. هكذا قال لهم المخلّص الساحر، وأسنانه تصطكّ من البرد، وأذناه المتدليّتان منتصبتين من القشعريرة.

بعدها تلتْ صرخة أخرى في النفق. تسارعوا إليها، وهم يحملون الفؤوس والعصيّ والحراب، فوجدوا امرأة أخرى، تتلوّى من الجراح.

أحاطتْ بهم من كلّ الجهات، أجسام غريبة متخفيّة. وكأنّهم شياطين ملعونة. راح المخلّص يقرأ الأوراد والتراتيل، ويبكي ملء حزنه و جزعه، وتبعه الكلّ متضرّعين. شكّلوا دوائر متلاحمة متراصة. وكانت تنقص من أطرافها، ويخترقها أولئك المردة المتوحّشون. هذا عالمهم و نحن اعتدينا عليهم، المغفرة يا اللّه، لقد طردونا وشرّدونا. صوته تجلجل، ودوّى وكرّرته أصوات المجذوبين. حتى انبلج ضوء وسطع نور عجيب، ففرّت تلك الشياطين إلى مخابئها. سكن النحيب، وانتشرت هدأة باهرة.

كان ذلك الضوء يتقدّم رويدا رويدا، حتىّ وصل إلينا، فاذا به حشرة عملاقة. لها جناحان قصيران وعين واحدة ساطعة بالضوء. تنفسّ الآدميون الصعداء. حمدوا اللّه على أن بعثَ لهم هذه الحشرة الرّائعة. تحلّقوا بها، يغنّون مواويل شجنيه. يجب أن تلازمنا طوال الوقت. هكذا قال لهم المخلّص الساحر. وأردف متابعا. لاشّك أنّ الشياطين تخاف من هذه الحشرة العملاقة. قبل أن يتابعوا المسير، دحوا تلك الجثث المتكدّسة في مجرى الماء، وتبعوا الحشرة بحركة بطيئة، وهم يلازمونها، ويطلبون بركتها.

كان المخلّص الساحر طوال الطريق، يحاول معرفة لغتها، وايماءتها ورموزها. لكنّه فشل في كل ما قام به. بدتْ ساكنة الملامح. تحرّك أطرافها ببطء، وجناحيها بسرعة أحيانا، وكأنّها تنفض جسدها من

أشياء لا يرونها.

عندما وصلوا إلى بوّابة عظيمة، في نهاية طريقهم. بدأت الحشرة تومض، وتكوّرت في مكانها. راحتْ ترمش عينها، وكأنّها تودّع الحياة. حينها راح المخلّص الساحر، يدثّرها بأسماله، و ينفخ في جسدها من كلّ ناحيّة. كان يعتقد أنّ البرد القارص قد فتك بها. أمرهم بمساعدته في النفخ. فهي خلاصهم الوحيد. وأملهم المنشود. وبينما هم ينفخون على جسمها، سمعوا صوت فحيح الشياطين الملعونة، التي كانت تنتظر، فرصة للانقضاض عليهم.

ارتعبَ الآدميون من أصواتهم المتلاحمة، المنسابة مع النفق، كعذاب نفسي موجس. أخذ طفل آدمي يبكي بشدّة، و انطرح على الأرض، في مشهد يحزّ النفس، ويقطّع أوصالها. لأوّل مرّة، منذ زمن طويل، تسرّبتْ الأنوار إلى أرواحهم البائدة، وتوغّل نسغ الحياة في عروقهم. واجتازوا ممرّات زمن مشروخ تذكّروه للتو.

كان كلّ من فيهم، يبكي على شاكلته و بشدّة. كأنّهم أطفال صغار. لقد هشّت أنفسهم. استفحل بهم مرض الفراغ الموحش، وما عادوا يأبهون بما سيحدث لهم. كان القنوط يبدو على وجوههم الشاحبة الصفراء. أمّا السحرة ذوي الأذان الطويلة، فراحوا يهمسون بالطلاسم والسحر، كيما يجدوا حلاّ للمصيبة التي حلّت بهم. ها هو رهانهم يقترب من نهايته. كانوا لا يصدّقون أنّ كل ما رأوه من النّبوءات، تنتهي بهذه السهولة.

لا بدّ أنّ هناك منجى ومسلكا. هنا أو هناك. لا بدّ من كائن نوراني ينجيهم من جحافل الظلام. ازداد حفيف الشياطين. كان لعابها يتقاطر على الجدران، و عطشها للدمّ في ذروته القصوى. الحشرة العجيبة كانت تخبوا لحظة بلحظة، حتّى حينما دثروها ونفخوا في جسدها. راح المخلّص الساحر، يستنطقها كالمجنون. يترجّاها أن تخبرهم بسرّ من أسرار العالم السفلي. لكنّها كانت لا تسمعه، أو ربمّا لا تفهم لغته الآدميّة المهترئة. الرموز والإشارات هي تطوّر اللّغة، كما الصّور هي عالم الموازي للأصوات.

وما إن انطفأتْ الحشرة، وسقطت على الأرض هالكة، حتّى فُتحت البوّابة فجأة. هجمتْ الشياطين على الآدميين، في ملحمة خياليّة، لا نظير لها. مرّ منهم الكثير. قُتل البعض. زحف آخرون، والدماء تلطّخ أسمالهم المهترئة. و من حسن الحظّ أنّ الشياطين كانت لا تقدر على اجتياز ذلك الحدّ.

حاول حينها الساحر المخلّص جرّ جثّة الحشرة، وفاء لها وتقديسا لجسمها العجيب. لكنّه كاد يهلك، بعد أن أحاطت به الشياطين. كنّا نرى جسمه يرتفع في الهواء. يرتطم بالأرض، وكأنّهم يحاولون تعذيبه. كان يلّوح بحرابه في المكان جزافا، محاولا قتالها والنيل منها. يصرخ ملء شدقيه. المجد لك أميرتي خداوج. نطق باسمها حتى ظهرت مرآة عملاقة عكستْ صور تلك الوحوش، فتعرّت حقيقتها وظهرت أجسامها للأبصار. حينما أدرك الآدميون ذلك، رشقوهم بالحراب والعصيّ. انسحبتْ الشياطين مفزوعة. مرّ الآدميون وهم يحملون

السيّد المخلّص. وأهازيجهم تصدح في الفراغات المعتّمة.

ما إن اجترْنا البوّابة حتى، قابلنا قبو مظلم في آخر الطريق. كان على عتبته سلّم نحو الأسفل. بدتْ أغواره عميقة جدّا، وصدى أصواتنا يتردّد إلينا، حتّى قبل أن نتكلّم. لا شكّ أنّه مكان مختلف تماما، وغامض لدرجة كبيرة. إنّه مكان جذّاب وآسر، تختبئ فيه الأسرار العتيقة جدّا، والأسرار الغيبية التي لم تحدث بعد. كانت الأوراد السّحرية، تتصاعد منه. تتمطّى في المسالك. تغلّف النتوءات الصغيرة. اصطفّ السحرة ذو الآذان الطويلة، وفي مقدّمتهم المخلّص الساحر، وخلفهم جيوش الآدميين، المتعطّشة للحياة وللخلاص، الذي ما زال يحفر ببطء في الذاكرة المهترئة.

هذا السلّم هو بداية العالم السفلي الحقيقي. هكذا نطق المخلّص، محدّقا فيهم، متوغّلا في أعماقهم. هل يتوجّب علينا النزول؟ هكذا تساءل أحدهم من الخلف بصوت متهدّج. تسرّب إلى أدمغتهم الهشّة. راح ينخر فيها بصمت، ثمّ توالت الأسئلة تباعا، كأصوات متلاحمة هبّت، تتصاعد من الأسفل. ماذا يوجد في الأسفل؟ تساءلتْ السّاحرة زحلوبة. فردّ عليها المخلّص على الفور، وكأنّه يعرف المكان جيّدا. في الأسافل سنجد اللّه ينتظرنا، وملكوته اللامتناهي، وسنخبره عن أولئك الجند المتبجّحين، وعن خيانتهم لنا.

لا شكّ أنّه يرانا بعلمه الواسع المتدفّق، ولكّننا حينما نكون بين يديه وفي حضرته سيختلف الأمر، فنحن من وصل إليه، وعرف مكانه في الدّياجي، وفي معاقل السّحر الخرافي. سنطلب منه أن يخفّف عنّا

العذاب، و أن يخلّصنا من الشقاء وينزع عنّا هذه الأقنعة المبطّنة، التي لم نعد نطيقها. هنالك في الأقاصي سنلتقي بأرواحنا لأوّل مرّة.

سنكون أوّل من يرى الروح، بألقها و توهّجها، و محيطها الشّفاف. أتصدّقون أنّ كل الأرواح الآدمية، موجودة في مكان مظلم، غير محدود. تحرسه ملايين من الملائكة الغلاظ الشداد. روحك يا زحلوبة و أنت يا عزيزة. و أنت هناك في الخلف..، ثمّ راح يقهقه كمارد مجنون. دوّت ضحكته الشاهقة في الأسافل بآلاف من الأصوات. اختمرتْ ببعضها .تلاشتْ بصيحة عظيمة، لم نعرف مصدرها. صمتَ حينها المخلّص.

كيف سنتصدّى للملائكة ونستردّ أرواحنا؟ هكذا تساءلتُ وقد احتواني شعور مبهم. لن يرونا لأنّنا غير مرئيين بالنسبة لهم. لن نزور مخزن الأرواح المحتجزة. سنكتفي بزيارة الغرفة السريّة. لقد خبّأ السّحرة القدامى، كلّ كنوز العالم هناك. الحليّ واللؤلؤة الكبيرة اللّماعة، والمرجان والزمرد والياقوت، والقلادة الخضراء العجيبة، سنجلبها من هناك وسنعيد هذه الجثث المتعفّنة إلى الحياة.

تناسوا كلّ مآسيهم، وخيالاتهم المخيفة المترعة. أخذوا يبتسمون ويشهقون بالدهشة، حيال ما يقوله، عن الكنوز المخبّأة، وعن قصصها التي تناقلها من كبار سحرة القصبة ودراويشها.

تحدّث مطوّلا عن رجل موريسكي، قد باح له بأسرار عتيقة، لا يعرفها غيره، وقد توصّل إليها من مخطوطات أجداده القديمة وأضاف بأنّه سيجد كنوز العثمانيين القدامى. سينقلها الى العالم العلوي، كي

يصبح ثريّا وساحرا عظيما. و كيف سنصل إلى هذه الغرفة؟ تساءل صوت آخر من الخلف. لا أعرف بالضبط، لكنّ السحر الذي في داخلي، يجذبني ويغلي، لذا لن نتوقّف حتّى نصل إليها، يجب علينا أن نجد شيئا ما، هذه فرصتنا الوحيدة في النّجاة، ولن نتخلّى عنها.

بدأنا في النزول في سلسلة طويلة. كنّا نمسك بأيادي بعض، كما أخبرنا الساحر المخلّص، وما إن تغلغلنا في الأعماق، حتّى سكن كلّ شيء، ولم أجدني. لقد اختفى جسمي بأكمله. كنتُ أتحسّسه بأصابعي، ولا شيء غير الخواء والفراغ. لم أعد مرئية وأصبحتُ شبحا مفقودا. لا أكاد أشعر بشيء حولي، سوى تلك الأصوات العميقة البعيدة، التي كانت تنأى كلّما نزلتُ صوب الأسفل. تماسكوا لا تستسلموا. كان المخلّص الساحر يصرخ ملء شدقيه. تتبعها تلك الأصوات المتلاحمة، كالصيحات المخنوقة.

مرّ الوقتُ وبقي الأمر على حاله. النزول غير المتناهي والفراغ الموحش

كنتُ أراني في أفضية بعيدة جدّا، محلّقة بين نجوم ساطعة، وأكوان هلاميّة تستحيل كلّ لحظة إلى أشكال متباينة. تراءتْ لي في الأفق البعيد، بنت صغيرة تشبهني، تغرز الإبر في دمية قطنيّة. تفقأ عينيها. كانت لا تريدها أن تبصر، ولا أن تعيش، ثمّ تلاشتْ صورتها. سمعتُ صراخ الساحرة زحلوبة. عزيزة أفيقي، لا تستسلمي إلى جيوش الخيال، ستبلعك كما فعلتْ مع الآخرين أرجوك أفيقي.

صوتها انساب من حولي. أحاطني بدفء، يشبه نسمة طيّبة هزّتْ أطرافي المتلاشية. كنتُ أريد أن أكلّمها، لكنّي عجزتُ عن ذلك. استمرّتْ قدماي في الهبوط إلى الأعلى، إلى أفضية خلف السماء. لا أعرف كم استمرّ الوقتُ. لكنّي كنتُ أحسّ بظهري المتقوّس، يزداد انحناء ويداي تتفرقعان و كأنّها تجاعيد الزمن المتكلّس ظهرتْ جُملة. أعلنتْ عن عجزي الأبدي. الزمن كان مختلفا حينما نزلنا، و كأنّه ضوء وامض. يومض فتتلاحق السنين والعقود. يتوقّف فتعود الهدأة الباهرة، وينتشر الصداع المزمن.

فتحتُ عينيَّ حينما سقطتُ من الأعلى. كانت الأهازيج تصدح في المكان والجواهر تتلألأ. النّور يشعّ من وجوه السحرة والآدميين. كانت وجوههم تحدّق إلى السقف الهلامي، منتظرة وصول الباقين. بدا المكان مكتظّا بالكنوز النفيسة، والصناديق الزجاجية الشفّافة.

ها هي الغرفة السريّة؟ أنا من أوصلتُكم هنا. لا أحد سواي يعرف هذا الطريق الوعر. لقد تغلّبتُ على كوامن نفسي وسحبتُكم معي. هكذا راح يصرخ الساحر المخّلص، يقفز هنا وهناك كالمجنون، بين الكنوز و يتمرّغ فيها. يرمي الجواهر اللمّاعة في الهواء. تصيبه شهقة عالية جرّاء الضحك. راح الكلّ يقلّده، وكأنّها عدوى غريبة أصابتهم. كانوا لا يأبهون بأيّ شيء. يكفيهم أنّهم قد وجدوا هذه الكنوز العظيمة.

للحظة أسطوريّة غريبة. وقف السّاحر المخلّص متصلّبا في مكانه. راح يبكي مصوّبا بصره الى زاوية نائية في المكان. ركض بسرعة قصوى إلى تابوت كبير مرصّع بالجواهر والألماس. أخذ يلثمه بلهفة، لا مثيل

لها. التفتَ يصرخ فينا. الأميرة خداوج هنا. أخرجوها أرجوكم إنّها هنا، كما قيل لي تماما، في الغرفة السرّية محتجزة منذ زمن قديم.

أسرعْنا بتحريك التّابوت وإنزاله من مكانه العالي. أخذَ المخلّص يغنّي المواويل الشجيّة، و الآدميون يتبعونه في ذلك. مواويل عثمانيّة قديمة، كانت تغنّيها الأميرة خداوج في غرفتها، حينما رحل عنها أبوها حسن خرتاجي، كي يحضرَ لها المرآة العجيبة. كان يقرأ طلاسم سحرية لا نفهمها، ويناجي الربّ أن يتحرّك جسدها.

أمّا نحن فكنّا في خلواتنا، مملوئين بصفاء نفسي عميق. نبتهل و نصليّ ليالي طويلة، والغذاء الروحاني ينسكب علينا كالفيض النوراني. نحن خدمك أيّتها الأميرة. هكذا كان يرّدد المخلّص الساحر، وهو ملتصق بالتّابوت. أمّا أنا فكنتُ منهمكة، شاردة في كيفية العودة إلى الأعلى، حيث الشمس ومنزلي الصغير في سوق الجمعة وقبر جدّي، الذي اشتقتُه كثيرا. تنبّهتُ لأوّل مرّة أنيّ استطعتُ أن أسترجع ذاكرتي البائدة، أن أحنَّ إلى المحسوسات. أراها من كوّة صغيرة في خيالي المترع قبل أن يُغلق، فتعود العتمة مجّددا، ونستحيل إلى كائنات شفّافة مهترئة.

نحن الآن خلف العالم. في شريعة الأشياء الشفّافة، يتكاثف حولنا الوقت. يستحوذ على ظلال أجسامنا النّحيلة. نحن نتنقّل في هذا المعبد الأسطوري كأشباح صغيرة. تجرّب التحديق في الفراغ، بعيد عن الكآبة والعتمة. نترنّح ونتلوّى ونحدّق طويلا في الممرّات الضيّقة، التي اكتشفها المخلّص الساحر خلف الصناديق العملاقة. لقد

سحبوها بصعوبة بالغة، فتكشّفتْ طرق أخرى.

بعضها منحني يعيد إلى المكان نفسه، وبعضها مفضي إلى المجهول. أخذوا يتسلّون بلعبة التخفيّ، متناسين مآسيهم وحياتهم الجديدة الغامضة. زحلوبة خذي هذا السوار المرصَّع بالجواهر، وخبئيه في مكان بعيد. هكذا أمرها السيّد المخلّص، وهو يتباهى بمكره ودهائه. لكنّه يلمع يا سيّدي وهذه الطرق مظلمة وسيكون من السهل عليكم إيجاده.

هكذا ردّدت زحلوبة متوجسّة من الدياجي التي تنبعثُ من الفتوحات الضيّقة. جرّبي متاهة أخرى وتوغّلي فيها ولا تخافي، فكلّ الممرّات تُرجع إلى الغرفة السريّة. كان علينا أن نجرّب لعبة المتاهة، كيّ نتخلّص من خوفنا الأبدي. نتحدّى أنفسنا الضئيلة. نستعير سرّ هذه الأماكن كي نضيء بها دواخلنا. تختلف المتاهات حسب الأشكال الهندسية، التي يصنعها العقل الواهم. الدوائر هي الفناء الحقيقي، والمجازفة الخاطئة في هذه اللّعبة وهذه المداخل والمخارج، تنفي فرضيّة الدوران اللامتناهي. أمّا القطوع المنحنية، تجعل صاحبها عاجزا عن البلوغ، بلوغ النهاية التي كان يطمح للوصول إليها.

فقد تسير زحلوبة في مسار نصف دائري، وتصل إلى العدم. ساعتها لن تستطيع أن تعود أدراجها، لأنّ هذه المتاهات وهميّة. فحينما مررتُ من إحداها، وأنا أتبع الساحر المخلّص، كانت حدود الطرق تتلاشى، بمجرّد اختراقها، والتوغّل فيها. كانت زائلة، آيلة الى الانقشاع. لكن ما إن نخرج من الجهة المقابلة، ستبدو بنفس المشهد الأوّل.

كأنّ المرء يركب الهواء دون أن يحّلق بجناحيه. كانت تسليّة مذهلة، وخطيرة في الوقت نفسه. لأنّنا لم نجرّب غير طريق واحد. أمّا المتاهات الأخرى، فلا نعرف نهايتها. الخطّ المستقيم الذي لا نهاية له، سيجعل زحلوبة تائهة في زمن سرمدي. يستحيل عقلها المحدود إلى وحش يتمدّد في دماغها حتّى يبتلعها. أو ربمّا سينفجر و تترامى أجزاؤه الصغيرة في المتاهة المستقيمة. تبقى المتاهات المنكسرة المترابطة والتي تغيّر اتّجاهها كل زمن قصير، هي الحلّ الأمثل.

حاولتْ زحلوبة التملّص من أوامر السيّد المخلّص، لكنّه أصرّ على طلبه قائلا. هناك عشر متاهات يجب أن نستكشفها كلّها. لوحّتْ زحلوبة بيديها عاليا. انتشرت الأهازيج تشجّعها. تشدّ من ازرها. فاغرورقتْ عيناها بالدمع، واشتعل وجدها الطّافح، بالحنين والحب الذي تكنّه لأصدقائها السّحرة وللآدميين. بعدها رمتْ بنفسها في المتاهة، فتلاشتْ حواف المدخل، وغرقتْ زحلوبة في ذلك العالم الكثيف.

كنّا نشتّت أنظارنا في كلّ الاتّجاهات، مرتقبين ظهورها. غمغم الكلّ، مغمورين بالألم، بعدما حدق الوقت بسرعة. لم تعد السّاحرة زحلوبة. أمّا السيّد المخلّص، فكانت أذناه منتصبتين إلى الأعلى، وهو في حالة استنفار قصوى. ثمّ التفتَ وقد جرّد نفسه من المشاعر النّبيلة.

المتاهة الأولى سنشطبها من اللّعبة، و لقد تبقّتْ تسع منها. ساد الصمت حينها. رحنا نحلق في بعض، أملا في أن يتطوّع أحدهم،

لكنّ السيّد المخلّص فصل في الأمر. أوقف ذلك التحديق الطويل. أنت أيّها الآدمي، سأعطيك فرصة الاختيار، هياّ جرّب حظّك. تقدّم الآدمي دون تردّد. اجتاز الممرّ بسرعة قصوى. و برمشة عين عاد من نفس المتاهة التي اجتازتْها زحلوبة. تعالتْ الأهازيج. صفّر الآدميون صفيرا حادا. تمطّت الأصوات في المتاهات. عاد الصدى من بعضها، ولم يعد من الأخرى.

قفز السيّد المخلّص جذلان مسرورا، وكأنّه رأى نبوءات جديدة، وصرخ فجأة فينا. اصمتوا لقد اكتشفتُ أمرا مهمّا. فتساءل الكلّ عن كينونته. فأخبرنا أنّه علينا أن نستعمل حيلة الصدى. فأيّة متاهة لا يعود فيها الصوت متردّدا هي متاهة خطرة، ليس لها طريق للعودة، ويجب أن نستعمل الصفير. ابتهجَ الكّل بما قاله المخلّص. ظننا أنّنا نجونا من الهلاك المحتّم. لكن ما إن لبثَ الساحر المخلّص وصفرّ في المتاهة التي اجتازتها زحلوبة، حتّى عاد صدى الصفير. صفّر في متاهة الآدمي، الذي نجا من الهلاك، حتّى عاد صدى الصفير أيضا.

كدّر وجه السيّد المخلّص. تراجع عن ما قاله للتّو. اعتبر ما قاله هزيمة لشريعة سحره التي تعلّمها في العالم العلوي.

لاشكّ أنّ القوانين تختلف عمّا هي عليه في الأعلى. أمر ساحرا آخر بأن يجرّب المتاهة الثالثة، فأطاع أمره للتّو. اجتاز المتاهة فلم يعد وساد الصمت مرّة أخرى. شككنا لحظتها أنّ السّحرة هالكون لا محالة، وأنّ الأسرار السحرية التي يحفظونها، هي من تجعلهم يتوهون دون رجعة. أمّا الآدميون فيغمضون أعينهم ببساطة فيجدون أنفسهم قد

نجوا منها، ولا يحيق السحّر إلاّ بأصحابه.

تنبّه السيّد المخلّص إلى الذي أضمروه في صدورهم، وما أسرّت به أعماقهم. فأمر آدميينْ آخريْن دفعة واحدة باجتياز المتاهتيْن. فلم يعودا وهلكا هنالك فتبدّدت الشكوك. تعقّدت الأمور أكثر وتفاقمتْ. لقد انتهوا من خمس متاهات. شطبوا منها أربعا، وعاد منها آدمي واحد فقط.

في تلك الأثناء. تلاسن آدمي مع ساحر وتعاركا. انتشرت الفتنة. تحزّب الآدميون في جهة معلنين عن تمرّدهم، ورفضهم المجازفة في اجتياز المتاهات. هجم بعضهم على السّحرة، أمام مرأى السيّد المخلّص. اتّضح أنّ الآدميين تغيرّت طباعهم، وصحوا من تيههم، في أوّل ولوج لهم للغرفة السريّة. استحالت تصرّفاتهم إلى بشر عاديين، يؤمنون بغريزة الخير. يحرّضون على الشرّ، ويطمحون إلى تطبيقه في العالم السفلي العميق.

لكنّ السيّد المخلّص وقفَ لهم بالمرصاد. أخرج عصا عملاقة من سترته. توجّه نحوهم غاضبا، مستاء من خيانتهم. كان يردّد صارخا. تخونوني كما خان الانكشاريون الأميرة خداوج. الويل لكم. ضرب بعصاه أرض الغرفة السريّة فتدحرج الآدميون كالأقزام. ركضوا كأنّهم فئران فرّت.

أخيرا اذعنوا وعادوا خاضعين له. حلّت عليهم دائرة السوء، ووجوههم مقتّرة مصفرّة. أمّا رؤوس الفتنة فقد قذفوا أنفسهم في

المتاهات المهلكة، فارّين من سطوة السآحر المخلّص.

عادتْ الأوضاع إلى ما كانت عليه. أحكم السيّد قبضته مجّددا. مَثلَ بين يديه المتمرّدون. باحوا بما في دخائلهم، وأنّ احساسا غامضا سطع فجأة. عصف بهم، وصوت عميق حرّضهم. دفعهم إلى الثورة و التمرّد. فأخبرهم السّاحر المخلّص حينها أنّه الطيّن الأسود. لكنّ الشكّ انتابه لحظتَها. راح يبحلق فيهم، منبهرا من ذاكرة الآدميين البائدة، التي ظنَّ في وقت ما أنّها هشّت وخربت.

أكملوا بعدها استكشاف المتاهات. شطبوا منها واحدة فقط، ونجا أربعة من الهلاك. بذلك أصبح المجموع خمس متاهات للنجاة وخمس للهلاك. بعد ذلك العذاب النفسي المضني، انطرح الكلّ على الأرض، يرنون إلى موّال الساحر المخلّص، وهو يجلس فوق تابوت الأميرة.

وحينما أوشكتْ أجفانهم أن تغرق في النّوم. خرجتْ السآحرة زحلوبة من إحدى المتاهات، وكأنّها سقطتْ من الأعلى. فاقدة الوعي، مصابة بصداع مزمن.

الفصْل الثَّاني عشَر

خلْف المرآة.

-XIII-

تشبّثت الساحرة زحلوبة بإحدى الصناديق اللّماعة. انطرحتْ أرضا. وكأنّ غيهب الوهم مازال يحوطها بغوايته ولعبته القذرة. حالما التفّوا بها ارتعبتْ وتجهّم وجهها .مشتْ خطوات. تتمايل وتترنّح، وكأنّها تفرّ منّا. بدا فمها فاغرا، وعيناها واجمتان. كانت تلوّح بيدها اليمنى، وهي تنتوي أن تقول شيئا ما. لكنّ حالتها لم تسعفها. ولحظتها هتف السآحر المخلّص.

-زحلوبة ماذا وجدت هناك؟

-أنا لستُ زحلوبة.

تلاقت الأنظار حينها. ارتجفَتْ من سكونهم المفاجئ. صوّب الساحر المخلّص نظرة لئيمة صوبها، و قال لها:

-يجدر بك أن ترتاحي قليلا. فالمتاهة قد أصابتك بالصداع، والنسيان قد طوى شريعة السحر التي تعلّمتها في العالم العلوي.

بعد أن حدث الحصار علّمها الساحر المخلّص الأسماء والرموز، والمخطوطات القديمة. استقتْ من نبع السحر الأبدي. تعلّمتْ من المعراج السماوي. أوسمها بلقب السّاحرة، بعد أن تدلّت منها أذنين طويلتين. لطالما كانت تلميذة مطيعة لسيّدها. هو من علّمها كيف تختبئ خلف الوهم. كيف تناور الوقت. تندمج معه باتّساق. لقد أخبرتني عن ذلك، وكيف جلبها صغيرة، من منزلها في القصبة العليا. مات والداها في اليوم نفسه. خرجتْ تحبو في الزقاق، وهنالك التقطها الساحر المخلّص. غلّفها بشريعته السريّة. ضمّها إلى البقيّة. كانت تقسم أنّها كبرت في أشهر فقط. بعدما توغّلت في عالم السّحر. لذا كانت تقول دائما إنّ عمرها لا يتجاوز العامين.

تجاهلتْه آنذاك وأجابتْ بلكنة غامضة:

-أنا صورة زحلوبة.

كان صوتها يتمدّد في المكان. يتردّد عشرات المرّات. لقد ركضوا متوجّسين من لعنتها. اختبأوا خلف الصناديق، يترقّبون الذي سيحدث. وكان الساحر المخلّص يقف قبالتَها. في مواجهة صارمة.

-أين زحلوبة. ومن أنت؟

لقد أقرّ بأنّها صادقة، دون أن يتحرّى ذلك أو يسائلها. كان رائيا

عبقريا يستقي من غيهب النّور اليقين والعلم السابق لأوانه.

كان السحرة الأقزام حوله يتبعونه في كلّ ما يفعل. يحاولون تقليده في كلّ شاردة و واردة. لكّنهم عبثا يحاولون. لأنّه كان قد ورثَ السحر. استقاه من مكامنه المخبأة في الجوهر. أمّا هم فقد تعلّموه وحفظوه كما هو. وشتّان بين الواهم و الرّائي الحقيقي.

-زحلوبة خلف المرآة. وأنا صورتها المحتجزة هناك.

لا أحد كان يصدّق ما الذي تقوله، وهل حقّا ليست هي. لكنْ يقينا أنّ صوتها كان يتردّد بسرعة مذهلة. السّحرة كانوا يقهقهون. يسخرون ممّا تقوله. كانوا يغمغمون بينهم، بأنّ السحر قد اختلط في دخيلتها. فتك بها. لقد بدتْ كئيبة ومعتّمة، وكأنّها ظلّ باهت.

انتصب الساحر المخلّص أمامها. يحدّق فيها. يقرأ تعويذاته، و طلاسمه كعادته. اجتازتْ زحلوبة المتاهة الوعرة في العالم. كان الرهان صعبا حينها. فلقد ساومها العالم الشفّاف بين أن تبقى معنَا أو أن تتحرّر روحها المحتجزة في المرآة.

اختارتْ الخيار الثاّني. قد يكون هذا احتمالا واردا. لكنّ الأرجح أنّها قد دلفت إلى المكان الذي لا خيار فيه ولا رجوع إلى السابق. لقد أصبحتْ في الطرف الثاني من العالم رائية حقيقة. تحدّق فينا. تطلب منّا الصفح والمغفرة. لأنّها اجتازت الطريق الخاطئ.

في الوقت نفسه. قد تكون اجتازتْ الطريق الصحيح. أو ليس الوهم

الذي نعيشه الآن لا خلاص منه ولا مناص. نحن القابعون هنا خلف المرايا. في منازل القصبة العتيقة، مرايا كثيرة، مختلفة الأشكال، متباينة الألوان. بعضها من العهد العثماني، وبعضها حديث.

في المنازل آدميون يعيشون. يأكلون ويشربون. تتزّين نساؤهم بالحلي والجواهر. يضعنَ المراهم والأعشاب التجميلية. يدخّن رجالهم السجائر من الشرفات العالية. يتراكض أولادهم في الأروقة والمتاهات الضيّقة. وهنالك بين الآدميين والمرايا مسافة ضئيلة. فهل هم خلف المرآة؟

سؤال غامض فعلا ومثير. راعني ما قلتُه للتّو. لكنّي فقط أتساءل عن الانعكاس المشابه لنا في المرآة. هل ما يعيشه الآدميون حقيقة أم انعكاس للمرآة. وإذا كان ما نعيشه مجرّد انعكاس لعالم حقيقي مجهول. فماذا عسانا نفعل؟

-خلف المرآة.

ما إن نبستْ بها، حتّى زُلزلت الأرض. تمطّى صدى الكلمة في كل الاتجاهات وفي آذاننا. فصمّها. قطّع شرايين بطوننا. سقط حينها الساحر المخلّص، وهو يتدحرج على الأرض. فرّ السّحرة مذعورين، من صراخها الوحشي. حينها تأكّدوا أنّها ليست زحلوبة. بل كانت شبيهتها المحتجزة في المرآة. و على عكس ما كنّا نتوقّعه، لم يحدث شيء.

كانت شبيهة زحلوبة مسالمة وليست عدوانيّة. كان صوتها حادا.

تتخلّله تردّدات مريعة. تتسرّب إلى الأعماق. لذا رجاها الساحر المخلّص، ألاّ تتكلّم و تكتفي بالرموز. حالما نصعد إلى العالم العلوي. لأنَّ طبيعة العالم خلف المرايا مختلفة وقوانينها مستساغة على الانعكاس وليس على الحقيقة. وقبلتْ هي بذلك، وقد أومأت بالإيجاب.

كانت شبيهة زحلوبة المسكينة منزوية بائسة. تتحاشى الخوض معنا في أيّ حديث، حتّى ولو كان بالرموز. بدت وكأنّها شاردة طوال الوقت. كنتُ حتّى تلك اللّحظة لا أصدّق أنّها ليست هي. نفس الملامح ونفس حركة شعرها حينما توّد الالتفات. لقد كانت تلك المتاهة مختلفة تماما. طريق يختلف عن هندسة الأشياء، وقوانين الوقت التي نعرفها.

ما معنى أن نكون خلف المرآة؟ لقد اكتشف الآدميون هذا السرّ العجيب على سطوح الماء الصافية، وعلى أسطح المعادن. لحظتها ابتسموا وافتعلوا حركات جنونية، كيما يروا انعكاس أفعالهم ويسخروا منها.

لكنّهم لم يتفطّنوا لحظة واحدة، أنّها رسائل استغاثة لعالم سريّ خلف المرايا. بل كان همّهم الوحيد كيف يندرون منها. كيف يتزيّنون أمامها وسط ضجيج الشبيهين، وصراخهم المتواصل في رؤوسنا. يحدث لكل واحد فينا، أن يسمع أحدهم يناديه في يقظته وفي نومه. يصرخ ملء شدقيه، باسمه عدّة مرّات. يستيقظ من النوم باحثا عن المنادي ولكنّه يبوء بالفشل. يلتفت في كلّ الجهات مستغربا. لكنّه لا

يبصر أمامه سوى الخواء والتيه الأبدي، الذي لا مناص منه.

يقينا قد تكون أصوات الشبيهين، تنتشر من أعماق المرايا. متى يستمرّ هذا الظلم وهذا الاستبداد. أمَا آن الأوان أن يتحرّروا ويخرجوا إلى اليقين. نعانق أشباهنا ونمرح سويّا، وكأنّنا نلهو بأرواحنا المهترئة. متى يسطع ذلك العهد؟ تخرج شبيهتي عزيزة إلى الحياة. هل يجدر بي أن ألقي نفسي في تلك المتاهة، وأستحيل إلى رائيّة بعيدة، بدل أن أعيش معها. هل هي قوانين النّور من منعت الساحرة زحلوبة من البقاء مع شبيهتها.

-يجب أن نُخرج الأميرة خداوج من التّابوت.

هكذا قال لهم حينما مثلوا بين يديه. ألوانهم منكفئة من شدّة الجزع والحزن. دبّ القلق في أرواحهم، جرّاء تحوّل السّاحرة زحلوبة إلى شبيهة. همهموا فيم بينهم أنّهم، سيستحيلون الى أشباه مثلها. ساعتها ستكون الفجيعة التي لا مفرّ منها. لكنّ سيّدهم المخلّص طمأنهم بأنّ هذا الأمر مذكور في مخطوطات السّحر العتيقة، وأنّ حالة واحدة فقط ستحدث. وها هي حدثتْ فعلا. فلا داعي للقلق. وحينها راحوا يحومون بالتّابوت. يغنّون المواويل الشجنيّة القديمة. التي حفظوها في الأعلى، قرب النّار العظيمة.

اشتعلتْ الجذوة في أعينهم فجأة. رقصوا وتقافزوا متنكّرين بالذكرى البائدة. زها السيّد حينما رآهم في أوّج نشاطهم. أجفل نحو التّابوت. اعتلى قمّته الشاهقة. صرخ فيهم بأن يتشبّثوا به، ويساعدوه

على فتحه. لكن دون جدوى. بدا التّابوت غير قابل للفتح.

تنحّى جانبا آنذاك وتقهقر. نشب في دخيلته السأم. سألهم وقد غلّفته العتمة. كيف سنخرج من هذا المكان المقفل؟ لم يعد بوسعنا الوصول إلى الربّ، ولن يتكلّم معه أحد قط. حتّى هذا التابوت اللّعين لن يفتح. نطق أحد السّحرة وأخبره بفكرة إشعال النّار. استدلّ بأنّ قوانين العالم السفلي تختلف عن العلوي. وأنّ النّار هي الماء. وأخبره أنّه قد قرأ ذلك. النّار هي النجاة، من هذا العذاب النفسي الذي يحاصرنا. إذا كان علينا أن نرى الأشياء في أضدادها. فيجدر بنا أن نتعامل مع النّار بمنطق الماء.

-ماذا برأيك سنفعل؟

سأله السيّد المخلّص.

-أخاف من غضبك سيّدي.

-لا تخف.

-سنحرق تابوت الأميرة.

أردف وقد سرتْ في جسده قشعريرة من الفزع.

-تتحوّل النّار ماء وستتحرّر الأميرة.

ردّ عليه السيّد المخلّص و قد وضع يديه علي كتفيه، وهزّها إليه.

- إن لم يتحوّل النّار إلى ماء، وكانت فكرتك خاطئة؟

-أنا متأكّد من ذلك سيّدي.

أقنعهُم بزخرف حديثه الخرافي، الذي كان وكأنّه ينتزعه من الخيال. جمعوا الحراب والأدوات الخشبية. أفرغوا قناديل الزيت التي فسدتْ. أحاطوها بالتّابوت. ألتفّوا بها جاثمين على الأرض. متوسّلين. متضرعّين لله أن تنجوا الأميرة، من شرّهم غير المقصود. يحدث في الحياة أن يحرق العاشق ذبيحة قلبه، كي ينثر وثيقة الحبّ في الهواء. و لكن لم يحدث وأن أحرقها كطقوس للنّجاة.

كان السّاحر صاحب الفكرة يحثّهم على اشعالها أكثر، لأنّ النّار يجب أن يميل لونها إلى الزرقة على حدّ قوله. أمّا السيّد المخلّص فكان يذرف الدموع. منزويا وحده. مطلقا العنان لكلّ مقدرته في السّحر. وبينما كانت النّار تلتهم التابوت، جاء آدمي من أقصى المكان راكضا. أخبرهم بأن يتوقّفوا عمَّا يقومون به لأنّه وجد شيئا مريعا.

-ما الذي حدث؟

سأله أحدهم:

-لقد وجدتُ السّاحر مقتولا، خلف ذلك الصندوق هناك.

ركضوا جميعهم صوب المكان. وجدوا جثّته ممدّدة على الأرض. أما الآخرون فقد طوّقوا السّاحر صاحب الفكرة بالحبال، بعدما أمرهم السيّد المخلّص. لقد كان مفزوعا وقتها. يصوّب ناظريه يمينا وشمالا.

عضّ المخلّص أصابعه ندمًا. فكيف استطاع إقناعه بفكرة النّار والماء. هو من علّمهم شريعة السحر. لقد كانوا كالكائنات الصغيرة، المحرومة من الماء. يحاولون إطفائها بأسمالهم المهترئة، حتّى غدوا كلّهم عراة. أمّا الساحر الذي دبرّ المكيدة، فقد أخبر السيّد المخلّص بأنّه شبيه السّاحر وليس هو. أتى من خلف المرآة متنكّرا بشريعة السحر، وأنّه قتله لأنّه كان عنيدا ولم يرضخ للنصيحة التي قدّمها له على حدّ زعمه. أدركوا حينها أنّ بوّابة العالم الشفّاف قد أُشرعت على مصراعيها. قد بات وشيكا هذا التحوّل المذهل، الذي سيقلب حياة الآدميين إلى الشكّ السرمدي، الذي لا خلاص منه.

حينما كانت النّار تطوق تابوت الأميرة من كل جانب. اهتزّت الأرض تحت أقدامنا المرتعشة. ظهرت مرايا كبيرة. غلّفت كلّ المكان في لحظة واحدة. انعكستْ وجوهنا عليها. فكنّا نلتفتُ ككائنات بائسة، صوب كلّ الأمكنة. غمرتنا الفجيعة والصراخ. حتّى كلمات السيّد المخلّص لم تكمّم أفواهنا. ولم تنزل السكينة على أفئدتنا.

كنّا في لحظة مجابهة مجهولة بين أرواح مشابهة لنا. كانت الانعكاسات الكثيرة للأوجه، تحجب عنّي الرؤية. تفقدني الإحساس بالآخرين. كأنّني وحدي في هذا الملكوت الزجاجي. أصارع نفسي. أكابد التيّه والضياع خلفها. أطيل النظر في احداها. تنغرس عيناي الذابلتين ويصيبني الشلل. أتبع الصور الكثيرة المنعكسة، وأضيع روحي بينها.

كانت الرهانات صعبة في العالم العلوي، لكنّ الأسفل مختلف.

خياراته كلّها وعرة وقاتلة. راودني إحساس مرعب لحظَتها. كأنّني سأستحيل إلى مادة تكوينية للمرآة. إغواء لا مناص منه يجعلني أندمج مع المرايا. أختبئ خلفها. بدتْ أسناني على حين غرّة وأنا أبتسم كمجنونة سافلة. أتخيّلني سطحا عاكسا. يقف أمامه الآدميون مذعنين، لبهرجته وألقه. أصيبُ أميرة صغيرة بلعنة انعكاسي، فتبتسم وتتلمّسني بأناملها الرقيقة. أقصد تضع يدها على سطح المرآة. فلا يوجد فرق بيننا. ويكسرني الغاضبون بقبضات أيديهم الجامحة. لكنّني لن أنتهي. بل سأطلّ عليهم من أسطح أخرى، فأنا سرمدي بلا زمن.

ما أروع أن أراقبكم أيّها الآدميون من منازلكم. أسلّط عليكم سحر انعكاسي الوهّاج. أعلّمكم شريعة الزجاجيين. لن أتوانى في إفزاع الأطفال الصغار سأطلق شهقة عالية، بينما هم نائمون وأقضّ مضاجعهم. أجعلهم يتصبّبون عرقًا. سيبحثون عنّي في كلّ الأمكنة، كي أتوقّف من إفزاع فلذات أكبادهم. لكنّهم في النهاية سيعجزون عن إيجاد، لأنّه لا وجود لي. سأزوّر وجوههم كي أسخر ملء روحي. سأوهم امرأة قبيحة بأنّها، فائقة الحسن، كي أتلذّذ من سذاجتها. تمشط شعرها قبالتي. أغوص فيم تفكّر. أجبرها على الابتسام وأفعل بها ما يحلو لي. فأنا انعكاس كلّ الأشياء. أنا صندوق الأسرار المكنونة وأقصى المكنونات. هل هو شعور مثير فعلا؟

هل يندمج الطين مع الخيال؟ اعتصرُ كثيرا. يتشقّق رأسي من الصداع. لكنّني ما زلتُ خارج المرايا. رائية طينيّة لا تصل الى شريعة الزجاج المعتّمة. أتصبّب عرقا كقطعة فخّار مبلّلة، و أنصهر في

دخيلتي بالطين اللّازب.

الأقاصي تصرّ على التحوّل، والطين لا يريد ذلك. يرفض الرضوخ للأشباه. من أنا؟ هل تحوّلتُ أم ليس بعد. لم أعد أذكر شيئا، ولا أنتمي لأيّ نوع من المادّة. لقد سيّرني الانعكاس إلى الخلاء الخاوي. استغاثتهم تتمطّى وأصواتهم المتلاحمة، تهزّ حزقة منّي. ولا اعرف أين هم؟

-عزيزة لقد عدنا الى نفس المكان. هيآ أفيقي. السيّد المخلّص يأمرنا بأن نصعد إلى الأعلى.

-أنا مرآة. لست عزيزة.

تقطّع صوتي بثقل كبير، وأنا أستجمع ما تبقّى من روحي الممزّقة. فتحتُ عيناي على جلجلة الماء، ومشهد السلّم. التفتُّ حولي فاذا بالآدميين منطرحين على الأرض، مثلي تماما. أمّا السحرة فكانوا يقفون بجانب السيّد المخلّص. يحاولون تفسير الذي حدث لنا.

مسعاهم ورحلتهم المضنية، لم تأت بأيّ نتيجة. اصطدموا بحقيقة مخيفة. وجدوا أنفسهم في نفس المكان الذي بدأوا منه المسار. تراءى لهم السلّم المودي إلى الحفرة التي حفروها، كما كانت أوّل مرّة. توغّل صمت محتقن في نفوسهم. أحسّوا بدوار مزمن يلفّهم ويغلّفهم بالتيه والضياع الذي لا مناص منه. شعروا وكأنّهم كانوا في وهْم أو كابوس جماعي.

كيف للآدميين أن يروا رؤيا متطابقة، وينتابهم خوف موحّد مبطّن. أليس هذا الجنون بعينه. تلقّفتهم عذابات النفس، ولم يفصلوا فيما حدث لهم. أهو حقيقة أم وهم. أكان ما حدث لهم في زمن ماض أو آت. قال بعضهم إنّ العالم السفلي متاهة، ودوائر تفضي إلى البداية دائما، وإنّهم أخطأوا حينما انتابوا نفقها الوهمي.

أمّا الساحر المخلّص فقد أمرهم بالصعود بسرعة إلى الأعلى. طمر هذه الحفرة الملعونة. صعدوا الى المدينة المحاصرة، وهم يخرّون من الإعياء. تعجّبوا من أنّ الظلام مازال مطبقا على المدينة، وهم الذين كانوا يعتقدون أنّهم استغرقوا زمنا طويلا تحت الأنفاق.

كأنّ الزمن كان متواطئا مع الوهم. تفقّدوا الشرانق واحدة واحدة، فوجدوها كما هي. لم تفقس ولم تتغيّر. حدّقوا إلى العسكر من بعيد، وهم فوق قممهم الشاهقة. كانوا يتسامرون ويتبادلون الحديث كعادتهم الليلية، غير آبهين بدهشتهم وقلقهم.

الفصْل الثَّالثْ عشر.

المَطرْ.

-XIV-

عاد الأزيز الحادّ، وقد أطلقتْ ترقو صيحتها الخرافية، حين غبش الفجر. استفقتُ على صوت غمغمة، كانتْ تعلو في العراء الباهر. حينما سدّدتُ ناظري صوب الصوت، راحت رموشي تهتزّ كأنمّا رأتْ شيئا غير معقول.

كانوا واقفين، مستعدّين لمجابهة تلك الحمرة البرتقالية، النازلة من السماء، كأنّ خطبا حدث لهم. كانت حركتهم السريعة توحي بذلك. كان باستطاعتي أن أعدّهم بكلّ سهولة وسط هذه الجثث المتعفّنة. واحد..اثنان ..ثلاثة...، دون أن أكمل العدّ أدركتُ أنّ زحلوبة ليست معهم. أو بالأحرى شبيهتها. لا أعرف بالضبط، فلم أعد أذكر شيئا عن الليلة الماضية. راحوا يتنطّطون بين الجثث. اعتلى أحدهم أحد الحاويات. عوى كذئب جريح. و أذنيه الطويلتين تتدليان.

ما الذي جعله بهذه الإثارة القصوى؟ من حوّل صوته إلى عواء؟ في نهاية الأفق، وقف المُخلّص العملاق وحيدا، وقد حجب قرص الشمس من البزوغ، وكأنّه يمنعه من ذلك. لهول ذلك المشهد لم أكترث إلى الشعور الذي خالجني، وسرى في عروقي، كسائل مجنون، يريد أن يغرقني. ناديتُ بأعلى صوتي. زحلوبة...زحلوبة. لكنّه لم يتجاوز حنجرتي العصفوريّة.

احتواني ذلك العالم الشفّاف، وما عدتُ أبصرني. فقط عيون متلصّصة تتحرّك. آنذاك لحقتُهم. اجتازوا الشارع الرئيسي، حاملين كيسا كبيرا. وعيونهم البراقة، تشعّ بنظرات مريبة.

كان المُخلّص يقول لهم: «اسرعوا قبل أن يسطع النّور. قبل أن تدركنا الأبصار». وصلوا الى البحر، حيث الميناء الخرب، والسفن المحطّمة. أخرجوا من الكيس جثّة زحلوبة. كانتْ جسدا ساكنا. بدتْ وكأنّها مبتسمة في غياهب عالم مجهول. ملطّخة بالدماء. متربة بالعرق. كنتُ باردة متجمّدة. شعرتُ بمتعة موحشّة، وأنا أتلصّص عليهم. أقتفي أجواءهم المخيفة. أيعقل أن يكونوا آدميين مثلنا. أم أنّ العدوى ستُصيبنا، ونستحيل مثلهم. ثمّ ما هذا الجزع والحزن الذي أراه في أعينهم. أمن المعقول أن يحبّوا زحلوبة وتحبّهم.

لقد فتكتْ بها ترْقُو وقتَلتها. ألم يقولوا إنّهم لا يموتون. إنّهم سيخلّصوننا. ماذا سيقولون للآدميين حينما يسمعون الخبر؟ لفّوها بالألواح الخشبيّة. ركعوا لقرص الشمس، وآذانهم المتدليّة تتحرّك ببطء شديد. السيّد المخلّص وخلفه السحرة. يتضرّعون ويرتّلون أوراد

الخلاص. التي لم تسعفهم بعد.

لم أعرف من أخبر الآدميين بما حدث. لحقوهم إلى المكان، وكانوا قد أوشكوا على رميها في البحر. كانت عيونهم تتأجّج بالشرّ. يتصايحون بالمكيدة، التي دبّرها لهم السّحرة. كان الانقلاب على شريعة السّحر، نتيجة حتميّة لكلّ ما حدث لهم في الأسافل. أخبرهم أحدهم أنّ ذلك الكابوس الجماعي الذي رأوه، ماهوا إلّا خديعة ارتُكبت في حقّهم وأنّهم أوهموهم بتلك الرؤى المزيّفة، التي تفضي إلى العتمة والخواء. لقد حاصروهم عندما كانوا، يريدون رمي جثّة السّاحرة زحلوبة . صرخ آدمي فيهم، وهم منهمكون في أورادهم وأغانيهم الشجنيّة.

-ارحلوا ايّها الكاذبون.

كان على السيّد المخلّص حينها، أن يتصدّى لهم ويقنعهم بالعكس. اصطنع ابتسامة. اهتاج وازدادت قامته طولا. فكانوا أمامه كمجموعة أقزام عاجزة. لكنّ ذلك الآدمي كان مصّرا في اتهاماته. تنادى فيهم بأن يصمدوا، وأنّ قوّته ليس سوى وهم، وحيلة سحريّة جديدة.

انتشرتْ الجلبة وتمطّت في الأفق. التفّوا بهم من كلّ ناحية. كان السّحرة يشعلون جذوة الأشجان، كي تعيد الآدميين إلى الصواب. لكنّهم عبثا حاولوا، ولا سيما وقد شاهدوا جثّة السّاحرة زحلوبة. امتدّتْ أصابعهم اليها جميعا، وأفواههم فاغرة. كأنّ ألسنتهم تقول. لمَ خدعتَنا أيّها السّاحر اللّعين. فانتفض السّيد المخلّص و راح يخطب فيهم.

-هذه ليست السّاحرة زحلوبة وأنتم تعرفون ذلك. النّور أعمى أبصاركم وجحدتم فضلي عليكم. لقد كفّ الموت عنكم حينما أتيناكم. أنجيناكم من وحوش العالم السفلي، وجحافل الظلام، التي كادت تبلعكم. أرجعتُكم إلى المدينة بعدما كنتم منسيين. أهذا جزائي؟

لكنّ الآدميين لم يغرهم كلامه المزخرف، المنمّق بالسحر والتعويذات. استعادوا ذاكرتهم المهترئة، بعدما وجدوا اليقين، وملأت أشعّة الشمس فراغات أرواحهم. كانوا كالمجانين يتساءلون بينهم. من هؤلاء السّحرة وكيف سمحنا لهم بالمكوث بيننا؟

تخاصموا حدّ العراك. لأنّ النسيان شتّتهم. لم يعودوا يذكرون الذي حدث لهم بغتة. رفع المخلّص عصاه إلى السماء، محاولا ضربها على الأرض، وهو يزمجر غاضبا. حينها حدث الأمر الذي لم يكن في الحسبان. تلبّدت السّماء بالغيوم، وتجهّم وجهها. في لحظة خاطفة سقطت قطرات المطر لأوّل مرّة، منذ زمن طويل جدّا. انتفض الآدميون كالعصافير. تقافزوا كالأطفال مرحين. ركضوا في المدينة، متناسين أمر السّحرة. والفاجعة التي ألمّت بهم.

تهاطلتْ الأمطار بغزارة كبيرة. ملأت الحفر الصغيرة والآبار والنّافورات التي نضب مائها. بدتْ القصبة حينئذ، ككاهن مسنّ يغتسل من أدرانه، وذنوبه التي اقترفَها طوال حياته.

انتزع الآدميون أسمالهم القديمة. ركضوا عراة. يدلقون الماء على أجسادهم النحيفة. يتمرّغون على الحفر المملوءة بالماء الذي ملأ

أنوفهم وأفواههم، وغمرَ أظافرهم الطويلة النّتنة. كانتْ أنفاسي تتسارع بشدّة والدموع تتطاير من عينيَّ. ألتفتُ يمينا وشمالا، وانطرح أرضا. أعتلي الأدراج والبنايات.

تزاحمتْ الأفكار في دخيلتي، والأسئلة الملغّمة التي تفضي إلى الخواء لكنّي تجاهلتُها. رحتُ أركض ونهداي الكبيرتان تقطران بالقطر الآسن. ما ألذّ الماء وما أطيب رائحته النديّة. هكذا قلتُ في نفسي. اتّجهتُ إلى الحواجز، حيثُ يوجد الجند في قممهم الشاهقة، وكأنيّ كنتُ أريد أن أتفحّص بقاءهم من عدمه.

أطلقوا ضحكات مستفزّة حينما رأوني عارية، متوغّلة بين الشرانق التي بهتَ لمعانها، وأصبحتْ عاتمة اللّون. ما زلتُ أسمعهم وهم يتصايحون كالدّيكة. اصطفّ الكثير منهم، بمعاطفهم الخضراء. كانوا يشيرون إليّ بأصابعهم. يتنطّطون كالمجانين. جلبَ زعيقهم الحاد، عددا كبير من الآدميين العراة، فانتشروا في الساحة وهم يتزحلقون. يتراشقون الماء بفرحة غامرة.

بينما هم في تلك الحالة الهيسترية. اقتربتْ آدميّة عارية من الحواجز العملاقة. راحتْ تحدّق في جندي قد هوى رأسه. برقتْ عيناه بالهيام. تغزّل بها وحثّها على الصعود، لكنّها كانت على الأرجح لا تفهمه. لم يطق لحظتَها صبرا، فنزل من السلّم وسط ضحك أقرانه وغمغمتهم المستهترة.

ولمّا حاول لمسها انقضّتْ عليه، وهي تعضّه من رقبته. سقط

فوقها تدحرجَا على الأرض. كان يحاول التملصّ من أنيابها، والعودة على عقبيه، لكنّه عبثا فعل، لأنّها كانت متشبّثة به. لا خلاصَ من وحشيّتها المنقطعة النظير.

ولأنّ أهازيج الآدميين العالية كانت تغلّف المكان، لم ينتبه الجند للذي حدث لصديقهم، إلّا بعد فوات الأوان. حاولوا أن يصوّبوا بنادقهم، لكنّهم لم يُفلحوا لأنّ جسده الملطّخ بالدماء، كان يعلو جسدها، والضّباب كان يحجب الرؤية .

فبعد عودتنا من العالم السفلي، لم نعد نفهم لغة الجند، كما كنّا سابقا. نرى أيديهم وهي ترتفع عاليا، ملوّحين بها في الهواء، وتلميحاتهم وإشاراتهم نفهمُ منها ما يريدون. لكّن لغتهم كانتْ غامضة، وكأنّنا لأوّل مرّة نسمعها.

بالرغم أنّ قائد الجند، كان في البداية يحذّرهم من عدم النزول، والاستسلام لفتنة الآدميات العاريات. إلاّ أنّه وقع في الفخّ. حينما انسلّتْ الآدميّة العارية من تحت جثّة الجنديّ. تدحرجتْ على الأرض برشاقة. دوّى الرصاص عاليا. حاولتْ الاختباءَ خلف الجثث المتعفّنة والتخفّي بشريعة السّحر، لكنّها لم تفلح. وقفتْ وركضتْ صوبنا. أصابها الجند من الخلف. فجثتْ على ركبتيها، ورنتْ الينا محدّقة. ثمّ سقطتْ جثّة هامدة.

لحظتَها تسمرّنا في لحظة صحو عجيبة. نتأمّلها وأرواحنا متّشحة بالألم. كان شعرها أسود. عينيها بنيّتين. جسمها يشعّ بياضًا. لقد

سكنَ كلّ الكون. ازداد معه تهاطل الأمطار. كنّا نراها كنقطة سوداء في الأفق، تهزّها زخّات المطر.

توقّف المطر. بحثنا عن سحرة الحنّ والبنّ، فلم نجد لهم أثرا. فتّشنا كل شبر في القصبة، بعدما شككنا أنّهم يختبئون في مكان ما. لكن دون جدوى. كأنّ أبواب السماء أُشرعت، وصعدوا من خلالها. تطايروا كالأبخرة المحلّقة في الهواء. لا أحد فينا يعرف سرّهم، ولا الطريق الذي اجتازوه.

عاينا الحفرة المؤدية إلى العالم السفلي، فوجدناها مطمورة، ولم تنبش قط. فكرّنا في كلّ الاحتمالات. لكنّنا أخفقنا وغلّفنا الشكّ مرّة أخرى. حتّى أنّ آدميا منّا طرح علينا أمرا غريبا. طلبَ منّا أن نسأل الجند، عن إذا ما رأوا السّحرة معنا في الأيام الخوالي أم لا.

برّر قوله بأنّنا صرنا نتوهّم حكايات. نتخيّل كوابيس جماعية. قد يكون أمر السحرة، حكاية اختلقتْها أدمغتنا العصفورية التّالفة. زمجر فيه أحدهم وقد غضب بشدّة. أتّتهمنا بالجنون؟ وأضافَ قائلا. هل الجنون يصيب كلّ المدينة. هل يرى كل النّائمين نفس الكابوس. أليس هذا دليلا على أنّ كل ما نشاهده بأعيننا، لهُوَ اليقين بذاته. أمّا عن أولئك السّحرة، فلقد سمعتُ من الأجداد، أنّهم يملكون قدرة كبيرة على التخفيّ، والإستحالة الى أشياء جامدة، ولا شكّ أنّهم أعملوا تعويذاتهم السريّة، وفعلوا ذلك. ولربمّا يعودون قريبا، وبقوّة أكبر.

لم أستطع التملّص من حديث السيّد المخلّص، حينما كنّا نتسامر، في الليالي الخوالي، والنّار العظيمة مشتعلة. كان يقول لي إنّ الخلاص من الوهم استحالة، ويجدر بنا أن نتقبّل هذه الحقيقة. أنّني الوحيدة التي تفهم الذي يحدث لنا، بالرغم أنّني كنتُ لا أفهم ما يعنيه. لقد أمسك يدي بيده الخشنة، ونظر إليّ نظرة إشفاق عميقة، لم أقدر حينها على تحليلها. حكى لي عن توأمه الذي مات في سنّ العاشرة، وكيف أنّه كان أذكى منه، وأبرع في إصابة الخفافيش الصغيرة حينما يطبق الليل. لكنّ القدر لم يدعه يكمل رهانه الأكبر في الحياة. مات بسبب تعويذة خاطئة أطلقتْها أمّه الساحرة في المنزل. كانت تظنّ أنّه في الخارج. تغلغلتْ في جسده نخرتْ عظامه الهشّة. كان يقسم لي أنَّ ذلك المشهد قد التصق في ذهنه، ولم يعد بمقدوره نسيانه. أتذكّر مشهده وهو ينبش الأرض بحرابه. يرسم خطوطا ملتوية على الأرض. يقرأها مغمغما، ثمّ يشيح بوجهه رانيا إلي الآدميين وهم يحومون بالنّار العظيمة، فتبرز أنيابه مبتسما.

الفَصل الرَّابع عشَر

الغوْلَم.

-XV-

تمطّت أسهم الضياء. في ذلك الزمن المشروخ يوما آخر. ظهرَ قرص الشمس، وهو يرفل في الأفق. توغّلتْ أشعّته عبر الشقوق، وخلف النتوءات الصغيرة. لكنَّ القصبة بدتْ خاليّة ساكنة.

سكتتْ كلّ الأصوات فيها. أبواق السّيارات والضجيج. أصوات الباعة التي تتوغّل في الأعماق. نداء المئذنة المنطلق من جامع كتشاوة. أصوات الطارئين الجدد من الأفارقة. همس المورسكيين القدامى. اصطفاق أمواج البحر. طقطقة المطارق. تمتمة الرجال بالغزل، وهم يلاحقون معشوقاتهم. صفارة شرطي المرور. غناء العصافير في سوق الجمعة. أذكار المريدين والعجائز وهنَّ في حضرة ضريح سيدي عبد الرحمان الثعالبي. صوت إذاعة محطّة القصبة. رنين الهاتف وصداه. حكايات الحرب والثورة. وكأنّها الساعة ما

قبل الأخيرة، تماما مثل المدن القاصية. التّي تطهّرها الجيوش من الآدميين. تبيدها بأكملها كيما يتخّلصوا من أدرانهم القديمة. طيور النورس لم تحلّق في السماء. وأعشاش العصافير، تدّلت خيوطها من أعلى الجدار المقابل. خربت تماما. زقزقتها لم تعد تلهم صباحات القصبة. الأولاد كفّوا عن اللّعب والزهو. الوحدة الشاهقة باتتْ عزفنا. الذي نطرب له. خيالاتنا المترعة سيطرت على حواسنا كلّها. لم نعد نشعر بمن حولنا. وكأنّ كلّ الآدميين رحلوا دفعة واحدة، أشبه بالهجرة الجماعية الى المجهول. إلى عالم آخر، يطيق آدميتهم. يحتويهم ويرمّم أجسادهم المهترئة.

دام الحصار طويلا عكس ما كنّا نتوقّع، ولم يعد العسكر المتبجّحون بكلماتهم الرنّانة. لقد أبانوا عن خيانتهم لنا. تركونا لجحافل هذه الوحوش الضارية. حتىّ اجتماعنا اليوميّ عند الحواجز العملاقة، لم يف بالغرض. ولم يغيّر من حالنا شيئا.

العجز كبّل أجسادنا البالية. حجب عنّا الرؤية. ليلة البارحة، استطارتْ زغاريد في أزقّة القصبة الموحشة، فاستفقتُ جذلانة. كنتُ أصغي أيضا لأبواق السفن التجارية، تصدح عاليا، بعد غياب طويل. فقلتُ في نفسي. الحمد لله. لقد بات خلاصنا وشيكا. ستنقشع هذه العتمة، وما إن مرّ الوقت حتّى خيّم الصمت. عبس الليل مجّددا. تبيّنَ أنّه وهم غلّفني، ولم تكن سوى الأطياف السرمديّة. حنّتْ إلى الزمن الغابر، واجتاحها هبل متكلّس.

تفقّدتُ الزقاق بعد الهزيع الأخير من الليل، وأنا شبه عارية. لا

شيء غير الخواء والضياع. فترات زمن متقطّعة من الصفير. أزيز بيبان موصدة. كائنات تعوي بحدّة. وحينما اتّجهتُ صوب الأصوات كي أستأنس بها، سكن كلّ شيء. توغّلت الأصوات في داخلي، وأنا واثبة متصلّبة. أقبض بكلتا يدي على صدري أمزّقه. أنبش جلدي الرقيق بأظافري الطويلة. كل شيء أصبح طويلا. أظافري وشعري، والأصوات المتلاحمة والصداع. أمشي وحيدة في العراء الباهر. أصرخ ملء حنجرتي. وحينما أصل إلى بوابة الميناء الحديدية المقفلة. أجمع حجارة كثيرة، أبدأ معركتي مع الأشباح. أرميهم بوابل لا ينقطع، ويرمونني بالصمت القاتل. أحاول التسلّق لكنّني أسقط طريحة الألم والعذاب النفسي. أعود أدراجي منكسرة، وقد هدّني التعب والقهر. أتساءل في نفسي. أين الوجهة الآن؟ ثمّ أطفئ هذا السؤال المتجدّد الذي أضرمُه كل ليلة، وأعود أدراجي مهرولة إلى المنزل كي أنام.

في الصباح الباكر. في لحظة خاطفة وأنا أحدّق من شبّاكي. ظهر جسم عديم الشكل في نهاية الزقاق. راح يقترب بحركة بطيئة عاجزة. كان لونه طينيا، وساقاه هزيلتان. بدا مشّوه الملامح، وكأنّه آدمي نجا من حرب ضروس. هالَني المشهد، وشعرتُ أنيّ في كابوس لعين. ما هذا الكائن الطيني؟ هل هو آدمي أم حيوان؟ ومن أين أتى...؟ أمن عالم العليّين أم من التحتيين. هبّت أصوات دافئة من حولي، فظننتُ أنّ ترْقُو قد أصابها النّور، فاستحالتْ إلى حمأ وصلصال.

كان الطيّن اللاّزب يسقط من جسده، قطعا صغيرة. عيناه الفاغرتان كانتا بائستين. تشعّان بقطرات ماء زلال صاف، وكأنّها بلورات من

الألماس. أمّا جسمه فكان مسبوكا، وعلى جبينه كُتبتْ كلمة غولم[11]، ولا شكّ أنّها إسمه الذي لا يستطيع النطق به. لقد شيفَ من كلّ الجيران، الذين كانوا خلفَ شبابيكم يتلصّصون، مرتعبين من هول ما يحدث. تألّم كثيرا وهو يصعد الأدراج الصغيرة. ردّدت أحشائه زفيرا وأنينا. ولم نحرّك ساكنا، لأنّنا لم نشرع نوافذنا منذ وقت طويل. فالخوف من ترْقُو صار هاجسنا الأوّل.

انتهى تحتَ شرفة دارنا. حدّق إليَّ وكأنّه يراني، فتوجسّتُ واختبأتُ تحت السرير. لكنّه لم يصدر أي صوت. ولم أسمع عياطه. بل واصل حركته الدبيبيَّة، تمشّى بضع أمتار. وقد نأى عن نافذتي.

وجاز من معاقل الدهشة، آدميّ مجنون. شقّ الرياح مقهقها، كجذوة خمدتْ للتوّ. تناسيتُ الكائن الطيني فجأة. رحتُ أحملق في سحنة بطنه البيضاء النّاصعة. كان يزرّر قميصه. يبتسم بهبل. ثمّ توّقفَ لحظة. أخرجَ مُشطا. راح يسرّح شعره ويغنّي. صوّب حركته المتناسقة إلى الأمام، دون أن يعير انتباها لمن حوله، و نأى بعيدا عن الزقاق.

---

11 **الغولم** بالعبرية، يوازي «الهلام» في العربية. إنّه «الغلام الهلام». يرد اللفظ في مزامير داود (139) بالشكل التالي: «عندما لم أكن سوى هلام (أي مادة غير متشكلة) كانت عيناك تراني». الغولم هو إذاً مادة غير متشكّلة، لكن لها هيئة. ما سيتطور في التراث اليهودي، وخصوصاً في الباطنية اليهودية (القباله) هو إشكالية محاكاة صناعة الخالق للإنسان من طين، بإعادة اشتغال الإنسان على المادة الطينية نفسها بالاستعانة بالطلاسم وأعمال السحر.

حدق الوقتُ بسرعة، مشى حينها الغولم بضع خطوات. انحنى ظهره قليلا. بدأ يتهاوى حتّى جثا على ركبتيه، وزحف على أربع. و لا منجد ولا مغيث. صدحتْ أنفاسه عاليا، وكرّرتها الجدران. كان جسمي حينها قد جفَّ من الدماء تماما. لم تبقَ إلاّ عيناي الضئيلتين. تهترّان كمؤشري ساعة. كنتُ أظنّ أنّ ترْقُو ستفتك به لا محالة، تماما كما فعلتْ بالآخرين. رحتُ اختلس الأنظار، وهو يتخبّط كحيوان عذّبه سكيّن مثلوم.

كنتُ أصغي جيّدا إلى الخواء، كي يعاودني الصوت الأزيزي الحاد كما عهدتُه دوما. لكّنه لم يأت. لم ألمح إشارة على ذلك. حرّكتني مشاعر خفيّة اتّجاه هذا الكائن، حينما انقطعتْ أنفاسه وسقط متهالكا. هرعتُ إليه ولففتُه ببطّانية، كما ألفُّ جثّة مقدّسة بحذر شديد. ألتفتُ يمينا وشمالا. جيئة وذهابا في الزقاق، كي لا تنالني الأبصار. حاولتُ سحبه مرّات عديدة، ولكنّي لم أسطع ذلك وخرتُ من الاعياء. فلقد كان عظيم الجسم، ممتلئا بالطين.

أغمضت عينيَّ متضرعة للربّ أن يساعدني في ذلك. لا أعرف لمَ كنتُ عابسة واجمة. أشعر بأعماقي الموحشة تكبّلني. تهدّني هدّا. ثمّ ما لبث أن تحرّك الجسم قليلا و أنا أسحبه بكلّ قواي. خلتُ في بادئ الأمر أنّي كنتُ وحدي حينها، ولكنّي كنتُ مخطئة، فلقد سمعتُ أنفاس الآدمي المجنون الذي مرّ للتو، وهو يلهث. يدفعه من جهة الرأس مبتسما. حتّى أوصله معي إلى عتبة الباب. دحاه إلى الداخل. ثمّ سحبناه حتّى نافورة الماء. وكأنّ هذا المجنون كان عاقلا.

ثمّ خرج مسرعا. وهو يدندن بكلمات مجهولة.

كانت عبثيتُه قدرا ساقَه اللّه إلي، كي أساعد الغولم. لقد ظلّ نائما وقتًا طويلاً، عند نافورة الماء، بعد أن كان يرعش لأوّل مرّة. وكان للأغطية الكثيرة التي أحطته بها أثرا جليّا، على أنفاسه التي سكنتْ كليّا. وضعتُ بمقربة منه حصّتي من الطعام التي بقيتْ لي من البارحة وقارورة ماء. صعدتُ إلى الطابق الأعلى أراقبه. لكنّه لم يتحرّك قطّ.

في الهزيع الأخير من اللّيل. أرهفتُ أذني لصوته الذي صدح كتعويذة سماويّة. كنتُ أمعن في مشهده المضطرب، وهو يتحسّس نافورة الماء الجافّة. راح يتمرّغ داخلها، كأنّه كان يشتهي الاغتسال. ربّما من أدرانه وذنوبه، التي كانت سببا في مسخه. ولأنّه لم يجد لذّته، راح يشمّ الأرض. يتعقّب هدأة روحه حتّى اهتدى إلى الأواني، التي كنتُ أملأها بالماء.

أفرغَها كلّها في صحن المنزل، وقد أصيب بشهقة عالية الصدى. راح يلعق ويتمرّغ. وجسده الطيني يلمع تحت أضواء القناديل الضئيلة. ثمّ اتّكأ على النّافورة ونام مجّددا. دثّر نفسه بالأغطية. فما بان منه إلاَّ عينان لمّاعتان كالنّجم. تتحرّكان بسرعة.

استمرّ الحال أيامًا طويلة، ينام نهارا ويفيق ليلا. استنتجتُ أنَّ النوّر في ذلك الصباح كاد أن يهلكه، لو لم أساعده والمجنون. الذي مازال يلوّح لي من بعيد كلّما صادفتُه في طريقي. يرمقني بنظرات مريبة.

وكأنّه يسألني عن حال الغولم.

مرّتْ أيّام على وجود الغولم في المنزل. لم يأكل ولم يشرب فيها. ولم يحاول الصعود إلى الأعلى. كان يكتفي بالتحديق الى السماء طوال اللّيل. وحينما يسطع ضوء الشمس، يختبئ تحت البطّانية، متكوّرا كطفل صغير. وكنتُ أنا في ذلك الوقت، أفتشّ في كتب جدّي القديمة، التي كان يقرأها. بحثا عن معلومات عنه، وعن الأمر الذي يحدث لنا. كان جدّي يخبّئ مخطوطات قديمة، تعود كتابتها إلى العهد العثماني.

في أوقات فراغه. ينفض عنها الغبار وينظّفها. يعيد ترتيبها وتغليفها. كي لا تُصاب بالتلف. في اللّيل يشعل القنديل ويكوّمها فوق الطاولة. يضع نظّارته الصغيرة. يلفّ الخيط الملتصق بها حول رقبته، وينغمس في القراءة والكتابة على الدّفتر. محاولة منه لإعادة كتابتها بخطٍّ مفهوم. أتلصّص عليه، وحينما يشعر بوجودي، أخاطبُه مستنكرة. صينيات في النّهار ومخطوطات في اللّيل !. فيُجيبني دون أن يلتفت. يجبُ أن أعلّمك كيف تقرئين هذه الكتابة الصغيرة.

في الأخير وقفتُ عاجزة، متسمّرة أمام الخزانة بعد أن أغلقتُها. لأنّي لم أجد فيها شيئا يجيب عن تساؤلاتي. كتب في طرق تعلّم النحاسة والخياطة. كتب تتكلّم عن كنوز المحروسة. حكايات عن قصص الدايات. الجبر والهندسة. خرائط لأحياء الدزاير وأزقّتها. كتب صغيرة للأوراد والأذكار الدينية.

الذي راعَني أنّه بعد مرور أسبوع كامل. طرقتْ باب منزلي جارتي يامنة. بعدما لاحقتني في الزقاق وهي تناديني. تعجّبتُ من ذلك. فلأوّل مرّة بعد الأحداث التي جرتْ، يحاول أحدهم أن يكلّمني. كان الكلّ غير مفهوم. يتخندقون في منازلهم. يتسلّلون إلى الخارج في اللّيل. يتجسّسون على المنازل، ويضعون آذانهم على أسطح الكوّات الصغيرة. يركضون في الأزقّة بالسرعة القصوى، دون أيّ مبرّر.

كنتُ أتساءلُ في نفسي عن جرأتها، وعن سبب قدومها إليَّ. أنظر إليها من ثقب الباب، وهي تلتفتُ يمينا وشمالا. بدتْ وكأنّها مرتعبة. وبسرعة مطّتْ فمها، وسط الشقّ الذي في الباب. همستْ. أعرف أنّك تصغينَ إليَّ، لقد رأيتُك حينما سحبتِ ذلك الكائن الطيني الى الداخل. هل هو بحالة جيّدة؟

أصابتني صعقة شديدة في رأسي. ارتعدَ جسمي. سألتُها عن الذي تريده؟ لكنّها ظلّتْ تسألني. هل لديك مرآة؟، وأردفت قائلة. افتحي الباب أريد أن أرى وجهي في المرآة وسأنصرف حالا. فأنا لم أره منذ وقت طويل. كان الشرّ يتطاير من عينيها، وفمها راح يكبر بصورة غير عاديّة. شككتُ للوهلة الأولى، أنّه أصابها الجنون، لأنيّ كنتُ أعرفها جيّدا. لم تكن بهذا العنف والتطفّل.

كانت طوال حياتها امرأة هادئة. دمثة الخلق. وحينما أخبرتُها بأنيّ لا أملك مرآة. راحتْ تطرق الباب بشدّة دون توّقف، وهي تصرخ بأعلى صوتها. أريد مرآة. لكنّني لم أفتح لها وطردتُها.

غادرتْ يامنة، لكنّها أثارتْ في دخيلتي رغبة شديدة في رؤية وجهي في المرآة. و قد مال في زاوية رأسي أنيّ، ما نظرتُ لها منذ زمن طويل. نسيتُها تماما. كانتْ هناك ثلاث مرايا في المنزل. واحدة صغيرة في غرفة النوم. في الدرج الأوّل لخزانتي. مرآة مستديرة، إطارها من الخشب الأحمر. مزخرف بشكل رائع. أهدتْها لي لالّهم يوم عيد ميلادي. كنتُ حينما أحدّق إليها أشعر بالرّاحة والرضى عن نفسي، ذلك أنّ وجهي كان يبدو على سطحها جميلا. أعني أقلّ قبحا من المرايا الأخرى، التي اضطر فيها إلى تغيير زوايا النظر إليها، كي أبدو بوجه جيّد. كنتُ حينما أقابلها كلّ صباح، أقول لها. شكرا لك لأنّك جعلتي عزيزة بهذا الحسن. وأبتسم معي، ثمّ أمسح زجاجها وأخبّئها بحذر شديد.

وواحدة معلّقة في غرفة الضيوف. كانت مستطيلة الشكل، كبيرة الحجم. والثالثة. مرآة منكسرة من الأسفل معلّقة في جدار المطبخ. استرجعتُ شكلها بدقّة متناهية. تشبّثتُ بها حينما كنتُ طفلة فكسرتُها، جرحتْ إصبعي الصغير. ففزع جدّي رحمه الله، وقد أبصرَ شظايا المرآة فوقي، والدّم ينثال من إصبعي. الغريب في الأمر أنّ ثلاثتهم لم أجد لهم أيَّ أثر.

قلّبتُ البيت رأسا على عقب، لكن دون جدوى. كانت المرايا غير موجودة، وكأنّ الأمر دُبّر بفعل فاعل. كما راعَني، أنيّ لم أنتبه للأمر، رغم أنيّ كنتُ أمرق من المكان الذي عُلّقتْ فيه المرآة المستطيلة. خالجني شكّ آنذاك أنّ لصّا حقيرا، قد قفز من فوق الأسطح. سرق

المرايا، كي يستبدلها ربمّا بحصص إضافية للطعام، كما يفعل الآدميون عند الحواجز. يستبدلون أشياء باهظة الثمن، كالذهب والمجوهرات بالطعام. لكنّ المرايا ليست كذلك. فلمَ يسرقها ؟

راودني احتمال آخر، وهو أنّ الغولم قد ابتلعهم. ربمّا كان يتغذّى على شظايا المرايا، فأنا لا أعرف كُنهه وطبيعته. لكّن هذا الاحتمال كان مستبعدا وغبيّا. الغولم كان مسالما ضعيفا، لدرجة أنّه لم يمش خطوات قط، ولم يُشف بعد. استنتجتُ وقتَها أنّ يامنة حدث لها، مثلي تماما. لقد جنّ جنوني يومها، وعزمتُ أن أبحث عن مرآة في المنازل المجاورة. فلا بدّ أنّهم يخبّئون مرايا قديمة.

مشيتُ في الزقاق بعدما أحكمتُ أقفال الباب، خوفا من أن يخرج الغولم فيقتله النّور، وتبوء محاولتي في إنقاضه بالفشل. توجّهتُ في بادئ الأمر إلى صديقاتي المقرّبات، واحدة تلو الأخرى. زوليخة صرختْ في وجهي وطردتني، رغم أنيّ أخبرتُها من خلف الباب بأنيّ عزيزة. وسألتُها عن المرآة. لكنّها لم تُعرني أيّ اهتمام.

أمّا لالّهم فلم أجدها في منزلها. وعيشة أشرعتْ نافذتها من الأعلى راحتْ تنتف شعرها الأبيض. لقد كان منذ أشهر قليلة أسود وحريريا ناعما. ما الذي حدث لك؟ هكذا سألتُها. مثلها مثل الأخريات. تجاهلتني وأغلقت نافذتها. لم أجد أحدا أتكلّم معه. أزقّة مهجورة، ومنازل موصده وآدميون يشبهون الآلات التي لا تفهم شيئا.

حتّى جامع كتشاوة، كان مقفلا. ولا شكّ أنّ المرآة التي كانت

معلّقة بالقرب من محرابه، لم تختف. لكنّ الأقفال كانت غليظة. ومن المستحيل أن أدلفه.

اختفتْ كلّ المرايا من القصبة، وكأنّها رفعتُ الى السماء، وما عدنُا نرى صورنا المنعكسة. تعذّرتْ الرؤية. انهمكتْ أرواحنا، في البحث عن الحقيقة. لم نعد نلمس الموجودات ولا نراها بأعيننا. كأنّ الحياة صارت ذكرى بائدة. تزايد عدد الكافرين بها، وأفضى بنا الضّياع والتيه إلى إنكارها. وكان القنوط يتجلجل وينسكب، مورثا عذابا لا يحتمل.

الفصْل الخامسْ عشر

صورةٌ واحدةٌ تكْفي.

-XVI-

لطالما تملّكني شعور مبّطن اتّجاه هذه الشرانق، وأنّها ستفقس يوما ما تماما مثل البيض. ولكنّ السؤال الذي كان يستعصي عليّ الإجابة عنه. ماذا سيخرج منها. لقد اختفى السّاحر المخلّص وأتباعه حنْ وبنْ دون أن يخبرونا حّتى بهذا السرّ المكنون. المختبئ خلف هذه الهيولى المتحرّكة.

البارحة تحرّكتْ الشرانق بشكل غير مألوف، فالتفّ حولها الآدميون. اصطفوّا كالجنود، التي تتأهّب لحرب ضروس، لا تبقي ولا تذر. كانت أعينهم تلمع، بشكل غير عادي، وكأنّها ممتزجة بالخوف والأمل معا. خوف من المجهول القادم، وأمل في الخلاص. هل كان علينا حينها أن نعدّ الأسلحة والعتاد، لمجابهة هذى القوى التي ستخرج للنور،

وإذا كان علينا ذلك. فلم لا نرفس هذه الشرانق ونطمرها تحت التراب من الآن وينتهي الأمر.

أنسى الأمر وأفكّر بأمر الغولم الذي تركتُه في صحن المنزل، مدثّرا ببطانيته. من أين أتى هذا الكائن الطيني. وهل خرج من العالم السفلي الذي قد تركناه مشرعا على مصراعيه. أم أنّه آدميّ شوّهته أشعّة النوّر البيضاء. فاستحال إلى مسخ من الصلصال. ثمّ يميل في زاوية رأسي. اختفاء المرايا من القصبة بأكملها، وكيف أنّ هذا الأمر خيالي، ليس بمقدور أحدهم فعلها.

كما أنّه لم يعد باستطاعتي أن أرى انعكاس صورتي على أيّ سطح. وحتى سطح الماء الآسن، صار غير مجدٍ للانعكاس. على الأقلّ صورة ضبابيّة، تجعلنا نتفاءل بأنّنا موجودون على سطح هذا العالم الشفّاف. لقد جرّبتُ كل الحيل، حتّى أتذكّر صورتي القديمة. لكنّي أخفقت. بحثتُ عن تلك الصورة الجماعية، التي التقطَها لنا ذلك المسنّ منذ أعوام. حينما جمعنا في سوق الجمعة ولم أجدها.

خبّأتُها في خزانة حنَّا في مكان آمن ولكنّها اختفت وكأنّ قوى خفيّة أخذتها. في ذلك الوقت ترجّيتُ المسنّ حينها أن يلتقط لي صورة، وأنا ألوّح بيديّ عاليا، ففعلَ وأعطانيها. بدا عجوزا طيّبا للوهلة الأولى. لكنّه حينما دلف القصبة بآلته الفوتوغرافية، التي كانت أشبه بصندوق كبير. راح يحبس كل المشاهد التي يقابلها أمامه. الأزقّة والمنازل والدكاكين.

سمعنا وقتَها، أنّ شغفه بالتقاط صور للآدميين بعد موتهم، لا مثيل له. كان يقتنص أخبار الموتى. يزورهم في منازلهم للعزاء. وكلّما رنّ في أذن القصبة، خبر موت أحدهم، تراه يمشي بتؤدة في الزقاق بآلته الفوتوغرافية، وخادمه خلفه يجرّ عربة صغيرة. فيها شاة مسلوخة، لأهل الميّت، مساعدة لهم. لكنّه كان يخفي في دخيلته، أنّها رشوة وليست كما يُقال. كي يُسمح له بتصوير الميّت.

خاصة بعدما حدث له في أحد المرّات. طُرد بعدما ضربوه ضربا مبرحا في جنازة أحدهم، ومن وقتها بدأ في استعمال هذه الحيلة. كان دائما يخبرهم بأنّ الميّت يجب أن تُلتقطَ له صورة واحدة. وتُحفظَ في مكان آمن. كنتُ أتخيّله مولعا بالتحديق إلى الموت، وملامحه الهادئة. وكيف يكون مبتسما، وهو يقلّب ألبومه المليء بالموتى.

شيء مذهل حقّا ما يفعله ذلك المسنّ. كان يخبرهم دائما أنّ طموحه جمع كلّ صور موتى العالم في أرشيف عظيم. هذا هو مشروعه الذي يسعى إليه جاهدا منذ عشرين سنة، وهو يعمل في هذا الميدان. الكلّ كانوا يبتسمون حينها. يتغامزون بخبث. وهم يمرّون عليه مرور الكرام.

لا ضير أن تلتقط صورا لموتانا. الكلّ كان حال لسانه هكذا. صورة واحدة تكفي، ثمّ يدحى الى القبر والظلمات. لقد أقام زمنا طويلا في القصبة، وهو يفعل ذلك. أشيع عليه في ذلك الوقت، أنّه كان يدفع رشاوي إلى امرأة، كانت تغسّل الموتى من النّساء، من أجل أن يلتقطَ صورهنَ عاريات وهنَّ يُغسلنَ، تهيئة للدفن.

وُشي به للشرطة آنذاك. ولمّا اقتحموا منزله. وجدوا ألبوما، يحتوي على عشرات الصور من النّساء العاريات. سألوه عن دافعه وعن خططه. أجابهم بسخرية. كنتُ أريد أن أسعد النساء وهن ميّتات. جواب كاف كي يخرس كلّ من يطعن في شخصه، وأنّه فنّان لا يحمل شرّا في صدره. لكن ما الذي جعله يتحوّل عن طموحه وحلمه، الذي كان يتغنّى به جيئة وذهابا.

كان يطمح أن يجمع كلّ صور موتى العالم، ثمّ استحال إلى راء. يسيل لعابه وهو يلتقط صور النّساء العاريات. أليس هذا جشع بائن. والحقّ أنّه لم يكتف بالاعتراف فقط، بل أخبرهم أنّه كان ينوي، عرضَ صورهنَ في حفل كبير، ودعوة كلّ ساكني القصبة. قال ساخرا متهكّما. لقد فاتتكم فرصة لا تُعوّض. وشاع أيضا أنّ المرأة المُغسّلة، دخلتْ مكتب الأمن وهي تصرخ. وجّهت له اتّهاما خطيرا جدا، وغامضا في نفس الوقت.

اتّهمتْه بأنّه ساومها بمبلغ كبير من المال، حتّى يضاجع احدى الميّتات. أضافتْ أنّه شغَفَه جسدها، وشعرها الملائكي. هاج كالشيطان حينها ساومَها بكلّ ما يملك. فمنعته وصدّته عن عمله الشيطاني هذا. وحينما سألوه عن ذلك لم ينكر، قال بصوت متهدّج: «لقد أصبحتْ دميةً بعد موتها، وليس لكم الحقّ في محاسبتي». كان يبدوا له هذا الأمر عاديا، بل وخدمة إنسانيّة يقدّمها للمرأة بعد موتها على حسب زعمه. كان يردّد في التحقيقات. كانت لتكونَ سعيدة لو ضاجعتُها. لقد كان ذلك أمرا جنونيا وقتَها وفي غاية الدناءة. أمّا ما

أشاهده اليوم، فواقع أراه أمام ناظريَّ. أرى الآدميين يضاجعون أجساد زوجاتهنَ في الساحة بمرأى الجميع.

أصابهم الضّيع والتيه. اهترأتْ أدمغتهم العصفوريّة، ولم يعودوا يتذكّرون شيئا من شريعة الإنسان. لا أعرف ما الذي كان يعنيه المسنّ قديما، بتصرّفاته وأفكاره التي كان يتغنّى بها. لكنّي أفهم ما يفعله الآدميون الآن. هل أقول إنّهم مجانين، أم إنّهم استحالوا إلى كائنات شفّافة، لا تؤمن بالعتمة. أو أنّنا أصبحنا ننتمي إلى عالم جديد. عالم برزخي شفّاف، لنا الحقّ في تدوين أسماءنا على مدخله لأنّنا اكتشفناه وفهمناه، وتوغّلنا في أعماقه وأقاصيه.

أوافقُه في أنَّ علينا التقاط صور للموتى. لا سيما وهذه اللّحظة التي أعيشُها. أرى هذه الجثث المتعفّنة. ملامحهم المتمايزة. جمالهم المتفاوت، وخاصة أولئك الأطفال الصغار. الذين يبدون كالملائكة، التي تلقّفتهم أمواج البحر العاتية، وألقتهم على شطآن العالم.

عدتُ إلى المنزل في المساء. وقفتُ عند الباب الحديدي العملاق. تجسّستُ من ثقب الباب، خشية أن يكون قد أفاق الغولم، فأضطر في مواجهته وحدي. تراءى جزء من بطّانيته كما هو. لكنّ المأزق الذي وقعتُ فيه، أنّني لم أجد مفتاح الباب. فتّشتُ جيوب السروال ولم أجده. أما حقيبتي فلم أعد أحملها منذ زمن طويل.

شتّتت نظري في كلّ الأمكنة. انطرحتُ أرضا. رحتُ أدقّق علّه سقط تحت الباب، لكن دون جدوى. لا بدّ أنيّ أسقطتُه في الطريق أو ربمّا

أمام الجثث المعفّنة. السطوح عالية جدّا، ولا أستطيع الوصول إليها من دون سلّم. في الماضي حدث لي ذلك عدّة مرّات، فكنتُ أتسلّل من أسطح الجيران، أمّا الآن فكلّهم ماتوا أو هم مختبئون كالجرذان في جحورهم.

عدتُ أدراجي وأنا مطأطئة رأسي في الأرض. أبحث هنا وهناك. أسترجع كل الأمكنة التي مررتُ بها، لكنّي لم أصل الى شيء محدّد. طلبتُ العون من الآدميين الآخرين، لكنّهم لم يعيروني أيَّ اهتمام. كانوا لا ينبسون بحرف واحد. يكتفون بالتحديق صوبي، ثمّ يتّجهون الى الشرانق، يتأمّلونها قليلا ويتوزّعون على الممرّات الضيّقة والأزقّة. تأكّدتُ حينها أنّ المنزل أُغلق ولم يعد بوسعي أن أدخله مرّة أخرى. كل ما كان يزعجني حينها أنّ الغولم، سيفيق في اللّيل ولن يجد الماء الذي يتمرّغ فيه. وحينها سيهلك.

مكثتُ يوما كاملا في ساحة الشرانق أتأمّلها. أحدّق إلى العسكر الذين يتغيّرون في المداومة كل ساعة تقريبا. لا يملّون ولا يسأمون في مراقبتنا والتحدّث عنّا. ما تُراهم يقولون عنّا وبم يصفوننا. أتشغّف إلى سماع ذلك. لا شكّ أنّهم يصفوننا بالمجانين، وأنّهم ينتظرون بلهفة فناءنا حتّى يفكّوا هذا الحصار اللّعين، الذي نصبوه في البداية. لكن لحدّ الساعة ما زلتُ لا أفهم لماذا ما يزالون يضعون الوجبات في المخزن بانتظام بالرغم كلّ ما حدث.

كان العسكر في كلّ مرة ينقصون من عدد الوجبات. فمع مرور الوقت كان الآدميون يموتون. تتكدّس جثثهم أمام مرآهم. بقي ألف

آدميّ منّا أو يزيدون. يهومون في الأزقّة، وقد غلّفهم الضياع الأبدي. اختمرتْ بعقولهم الأصوات المتلاحمة، وذلك الكابوس الجماعي. أقصد ما رأيناه في العالم السفلي. لقد استحلنا إلى كائنات مجهولة. نسحب وجباتنا كل يوم من الخازن، ثمّ نتوغّل الى الأعماق. نختفي إلى أن يدور قرص الشمس دورته كاملة. ويعود إلينا هو كذلك متعبا، وكأنّ عليه هالة سوداء تحت تقاسيمه النّورانية.

عدتُ مساءً إلى منزلي كي أتفقّده. كنتُ آمل أن أجد أحد الجيران، فأطلب منه العون. صعدتُ السلالم كشبح، فقد جبروتَه وهيبته. كنتُ وحيدة في هذه المدينة الخياليّة. الوحيدة التي ما زالت تشعر بما يحدث. نظرتُ حولي إلى الكوّات المنطفئة. تخيّلتُها مشتعلة كما كانت سابقا، فابتسمتْ شفتياي اليابستان، وكأنّهما قطعتان من الطينّ اللاّزب. اهتزّتْ خصلات شعري، إثر نسمة ريح باردة هبّت من حولي. يا لها من لحظة رائعة. لقد سكن كلّ الكون. تنفّستُ على إثرها، وأفرغتُ كلّ الهواء الذي في داخلي.

لحظة بلحظة أسدل اللّيل ظلمته، فأظلم كلّ شيء حولي. انتشرتْ معه المواويل الشجنيّة للآدميين. إنّها شريعة السّحر التي علّمها لنا السيّد المخلّص وأتباعه حنْ وبنْ. كم كان ذلك منعشا بالنسبة لي، لأنّهم حنّوا اليه، وتاقوا الى عودته.

لقد استطاع الساحر المخلّص ولو لوقت قصير أن يحكم زمام الأمور، ويجعلنا نفكّر كلحمة واحدة. علّمنا أيضا كي نتضرّع ونبتهل. نبكي ملء أعماقنا. كم كان ذلك رائعا. لقد كان صادقا ونابعا من

أرواحنا الشريدة. والمدهش أنّه أثناء سيري كانت كوّة منزل الروخو مضيئة، كما لو أنّ أحدا كان هناك.

اقشعرّ بدني، وسرتْ فيه شرارة كهربائية. فالمدينة بأكملها مظلمة، إلّا هذه الكوّة. خيّل لي وكأنّ أحدهم كان يطلّ منها. رجل يشبه الروخو تماما. ملامحه وابتسامته الشاحبة. وكان يفتح راحتي يديه. يضعهما على سطح الإطار الحديدي فاغرًا فاه. كأنّ أحدا كان يطعنه من الخلف. ثمّ حرّك رأسه يمينا وشمالا وابتعد عن الكوّة.

كان المنظر الذي شاهدتُه مروّعا لدرجة كبيرة. فكيف له أن يعود للحياة مجّددا. وكيف للكهرباء أن تعود في منزل واحد فقط من العالم. نظرتُ فيما حولي وقتَها، فلم أرَ شيئا سوى الظلام الدّامس، وحتّى ضوء القمر، اختفى خلف الغيوم المتراكمة. بدا ذلك الضوء وسط الأفضية الشاسعة، كمخرج سرّي إلى العالم الآخر.

لحظتها لم أستطع منع نفسي من أن أطرق بابه وبشدة. تمكّنتْ منّي قوّة شريرة. كنتُ كالمجنونة أطرق برجليَّ ويديّ وتارة أسترق النظر من ثقب المزلاج. أبتعدُ عن الباب، فأرى شبحه يطلّ من فوهة النّور. وحالما يراني يختفي مجدّدا، وكأنّه كان يتعمّد إغاظتي.

استمرّ الأمر معي وقتا طويلا دون جدوى. كنتُ متحرّقةً لأن أشعر بضوء المصباح ودفئه، لكنّه لم يفتح الباب. استمرّ في لعبته الشيطانية. كانتْ حركتي آنذاك أشبه انسان آلي ملعون. الحقّ أنّني منذ عرفتُ السّاحر المخلّص، أصبح اللّيل متنفّسي، ووقتي المفضّل

الذي أتغلّف به بعيدا عن الخواء والتيه.

كانت الأزقّة المظلمة تشبه ممرّات روحي كثيرا. أتغلغل في القصبة. أركض مشرعة ذراعيَّ. أقذف الحجارة في كلّ الاتّجاهات، ثم أجفل مختبئة من خطر مجهول يتربّص بي، ولكنّي لا أجده. أتشبّث بالجدران محاولة أن أتسلّق إحداها، فأسقط منهكة. أجرّ جسدي متمرّغة، وأتلصّص تحت فتحات البيبان الضيّقة.

أتساءل ماذا يحدث خلفها؟ أين اختفى أولئك الحمقى من الآدميين. أضع أذني الهشّة على الأرض، كي أسمع ماذا يدور بينهم في الداخل، لكنّي أبوء بالفشل. في النهاية تناسيتُ الأمر وتجاهلته، بعد أن هدأتْ دخيلتي. تسلّحتُ باليقين، وطردت تلك الوساوس التي اعترتني، وكادت تفتك بي.

أطلقتُ آهة عميقة وتجاوزتُ منزل الروخو. وحينما وصلتُ إلى منزلي، تراءى لي شعاع القمر يخترق ردهة المنزل. نعم لقد كان الباب منزوعا وموضوعا على الأرض. وكأنّ قوّة خارقة اقتلعتْه. اختبأتُ بسرعة خلف الزقاق القريب منّا. كنتُ أتلصّص خلسة. أسترق السمع، ولكنّني لم أسمع شيئا. كان المكان هادئا. شعرتُ لحظتها بالخوف والسعادة معا، لأنّني سأستطيع أن أكون في منزلي. أستتر من هذا العراء الباهر. أمّا الخوف فقد كان منبعه الغولم. الذي لا أعرف ماهيته لحدّ الساعة؟ وهل مازال قابعا في الداخل أم خرج؟

تسلّلت إلى الداخل ملتصقة بالجدران. جاثية على ركبتيَّ. كان

القنديل الذي علّقته في ليلة مضت. مازال لم يخبُ، ولم ينفد زيته. تراءى لي الغولم متدثّرا ببطّانيته. يغطّ في نوم عميق، بجانب النّافورة. وكأنّه لم يتحرّك قط. صعدتُ إلى الأعلى. فتّشتُ كل شبر في المنزل، تحت سريري و في الخزانة والقبو، وكلّ الأمكنة التي قد يعتريني اتّجاهها شعور بالفزع. لم يكن هناك تفسير واضح لما حدث سوى أنّ الغولم قد أفاق. اقتلع الباب من جذوره. وكأنّه قد شعر بأنّي ضيّعت مفتاحي. أو تعطّش للماء، كي يتمرّغ فوقه، ولم يجد من يدلقه على الأرض، كما أفعل أنا كلّ يوم، فجنّ جنونه. لكن من أين أتى بهذه القوّة الخارقة، كي يقتلع بابا بهذا الحجم. لطالما شعرت أنّه ضعيف ولا يقدر على الدبيب حتّى. شيء لا يصدّق البتّة.

كلّ الأشياء التي حدثتْ في المدينة مؤخّرا لا تُصدّق، فلم يكن الغولم استثناء. لابد أنّه كائن قوّي جدّا. لكنّه لم يتعافَ بعد من النّور ومن كدماته القديمة.

الفصل السّادسْ عشر.

الأشْبَاه.

-XVII-

انكفأ لون الغروب في فجاءة غامضة. حمرة قرص الشمس تحوّلتْ إلى بياض شديد على غير العادة، وقطع السحب الضئيلة تمدّدت نحو الأفق إلى حيث ينتهي المدى البعيد جدا.

الظلمة الجليلة استحالتْ نورً ساطعًا. كان البياض قد احتوى كلّ المكان، وكأنّه غمر دخيلتي. عيناي كانتا وكأنّهما قد غمستا فيه. استقتَا من نتوءاته الصغيرة. لا أعرف بالضبط أهو الغروب تحوّل الى لون حليبي، أم هما عيناي المتعبتان.

تلاحمتْ الأصوات. تمطّتْ في كلّ المدينة. وجدان الآدميين انفجر، وانتشر أنينهم المدهش في الخواء الفاجع. كانت تموّجات أصواتهم. كالإيقاع الصارم، مثل قرع الطبول تماما. رنوتُ إلى جانبيَّ، فتضائل البياض لحظة بلحظة. تعرّ مشهد الآدميين، وهم فاغرين

أفواههم. تحوّلتْ ملامحهم النحاسية إلى أصنام، مدجّجة بالصمت.

بعد وقت قصير اضمحلَّ النّور. اختمرتْ معه حمرة غامقة. ارتسمتْ في حواشي قرص الشمس. كان الآدميون يتصايحون. ينشدون الأمل في النجاة. الامتحان قد انتهى. وها نحن قد نجحنا فيه. هكذا تصارخوا فيما بينهم.

استدارَ الزمن إلى الوراء، وهذه علامة فارقة، هو برهان على أنّ السحر قد تلاشى، واضمحلّ هذا العالم الشفّاف. ها نحن الآن عراة تماما، لم يعد على أجسدانا أسمال، ولا على أرواحنا ذنوب، حتّى تمنعنا من البداية مجدّدا.

أليس هو المخاض المنتظر؟ كي يستعيد الزمن عافيته، ويتغلّف تكوينه الطيني بالنفخة الأولى. نعم كلّ ما حدث لنا، كان عودة للزمن. لقد كنّا بشرا ثم كان التحوّل. بشرا نكره بعضنا. نتقاتل فيما بيننا، ثمّ استحلنا إلى آدميين بدائيين. نضرم النيران العظيمة. نرقص حولها. نمارس السّحر القديم جدا...وها نحن الآن عراة ننتظر أن يظهر النّاموس، ويخبرنا عن الانقلاب المزمن الذي حدث لنا.

ها هو الريّح يركب الرهان. يصفّر بقوّة في آذاننا، وكأنّه يريد أن يقدّم لنا يد المساعدة. زمجر واهتاج واجتاز سقف السماء. تهاوى علينا كالدويّ الشديد. لكنّي وبسرعة تراجعتُ عن تفكيري المعتّم حينما تحرّكتْ الشرانق وتضاعفَ حجمها الطبيعي. أصدرتْ طقطقة عالية الصدى. تصايحَ الآدميون كلّهم بصوت واحد. إنّها تفقس...

إنّها تفقس. وكنّا للمرة الأولى نعتدل في صّف واحد طويل. نشابك أيدينا، بشكل تلقائي غريب.

استمرَّ مخاضهم وقتا طويلا. كان قرص الشمس يتهاوى تدريجيا إلى الأسفل. إنّه العذاب الواصب، الذي لا خلاص منه ولا مهرب. أغمضنا أعيننا، متضرّعين مغلفين بشريعة السّحر التي علّمها لنا الساّحر المخلّص. نكرّر بصوت واحد، أدعية شجنيّه ساحرة. ولكن ما ينفع الآن وقوى مجهولة تكاد تتوالد. تخرج إلينا، كي تشاركنا هذا الحبس العملاق، الذي نحن فيه.

وقتَها كان الجند مصطفيّن في صفّ عظيم. يتضاحكون منَّا. يشيرون إلينا وهم يزعقون فيما بينهم. وللحظة تفرقعتْ إحدى الشرانق، فانتشر سكون مهيب. خرج كائن متكوّر على رجليه، ثمّ ازداد حجمه بسرعة فظيعة، ووثبَ مقابلا لنا. يرمقننا بنظرات حادّة. وكان صورةً طبق الأصل للآدمي الذي كان واقفًا معنا.

راح يحملق فيه. يشير إليه بأصبعه كأنّه يعرفه. حينها فزع الآدمي تراجع خطوة الى الخلف. وما إن تنادى الآدميون فيه. أنِ أثبتْ. حتىّ عاد إلى مكانه وأغمض عينيه كي لا يراه، وهو يقلّده في كلّ شيء. توالت الولادات تباعا، واحدا تلو الآخر. وكان الشبيهون بنا يصطفّون قبالتنا مع مرور الزمن. كنّا وكأنّنا نقابل مرآة عظيمة الاستطالة. تماما مثل الذي شاهدناه تلك الليلة في العالم السفلي.

فُتحتْ بوّابة المرايا. ها هم الآن خلف المرآة يتربّصون بنا. يحملقون

بنا وكأنّنا أعدائهم الأزليّين. شبيهتي كانت تلوّح لي. عارية مثلي تماما. لا أعرف ما كانت تفكرّ به، وما كانت تنتوي فعله معي. وهل شريعة الشبيه، تقتضي أن يبقى وحيدا، أو يتعايش مع نسخته كالتوّأم تماما.

كلّنا كنّا نعيش ذلك العذاب النفسي العميق. أحملق في عيني عزيزة الشبيهة، وأهمس متسائلة. لماذا لوّحت بيدها اليسرى؟ ثمّ أغمغم مع نفسي. كلاهما سيّان. لكّنها للحظة تنهي فتيلا أضرمته للتو. تلوّح بيدها اليمنى. نعم لقد سمعتْ ما في أغواري، وابتسمتْ بعدها. رفعتْ يديها بتواز إلى الأمام. بعدما همستُ في داخلي، أريد اختبارها.

لم تكن تتوانى في مجاراتي في حيلي وخدعي. كان ذكائها متوقّدا مثلي تماما. وبينما كنتُ أحملق بها، سمعتُ صوتا مرتفعا، منطلقا من أحد الشبيهين. من أنتم؟ أصغيتُ في اللّحظة نفسها، إلى صوت الآدمي الذي يشبهه وقد طرح نفس السؤال. من أنتم؟ فاحترتُ من قال ذلك أوّلا. التناغم بينهما كان رائعا، وحركاتهما متطابقة لدرجة كبيرة. ماذا تريدون؟ الصوت والصدى تمطيَا معا. تلاقيَا في عتمة البياض. ثمَّ اندثرا كأن لم يكونا. لقد كان معنى البداية حينها معقّدا جدّا، ومعنى الحقيقة لا منطق له. من هو الأوّل ومن الأخير؟ ومن الأصل ومن الشبيه؟ ذاكرتي المهترئة لم تعد تذكر شيئا. الصور البائدة اضمحلّت وتلاشت، والعتمة الفاجعة توغّلت في الأقاصي.

انتشرَ الصوت وصداه مجّددا. أتريد أن تقتلني؟، طفرتْ منهما الدموع. اعتراهما أسى شديد. تبادلا نظرات مهزومة، مغلّفة بالخوف

والقلق، كأنّهما قد فهما أنّ واحدا منهما سيبقى، ويموت الآخر بيد الآخر. من يقتل شبيهه، سيمحو وجهه من المرآة، وسيغدو شبحا زائفا، يتجوّل أزقّة القصبة، خفية عن النّاس. مال في زاوية رأسي لحظتها شبح الروخو الذي أطلَّ عليّ من كوّة منزله المضيئة ليلة البارحة، واستنتجتُ أنّ الذي رأيتُه كان شبيهه القابع خلف المرآة، ولم يكن هو.

الصوت وصداه مرّة أخرى. كان الآدمي يهذر بهرطقة غريبة. خالفتُك مرّة واحدة فقط في حياتي. كنتَ توّد أن تُطلّقها، لكنّي رفضتُ. لقد حدّقت نحوي في المرآة مطوّلا. حرّكتَ حاجبيكَ مثلي تماما. تحسّستَ شعرات الشيب التي لمعتْ في رأسك، كمعدن نفيس. لماذا كنتَ تتلذّذ بإهانتي، وإظهاري بتلك البشاعة المقزّزة؟ توّغل البياض في شعري. تجعّد جلدي. لكنّي كنتُ ما أزال أحبّها. فقط هي المرةّ الوحيدة، التي خالفتُك فيها. ساعتَها قلتَ لي بصوت دفين وعميق. تخلّص منها.

كان الآدمي يجوب عوالم بائدة. يقتفي حكاية زوجته مع الشّبيه. كان الكلّ صامتين. يصغون إلى هرطقته المضنية. وفي نفس الوقت كانوا يقابلون أشباههم بحذر شديد. فمن منهما الذي ينقضّ أوّلا، سينجح في إكمال لعبة الحياة. شبيهتي عزيزة مازالت تقلّد حركاتي. تصيبني بإيماءات نفسيّة. كأنّها تريد أن تحاصرني من كلّ الجهات. قوّتها كانتْ تكمن في اللّغة العميقة. سلاحها يشبه السّحر الصامت. تهاجمني من الدّاخل بأسئلة مخيفة، وتبعث لي بأسرار لا يعرفها

غيري، وتبتسم كي تفضحَ ضعفي.

كنتُ أنا أتذكّر شريعة السّاحر المخلّص. أعاود تلك الأغاني الشجية بحرارة لا نظير لها. أهمس لها بالتعويذة المشهورة التي كان يردّدها السحرة. أبرا كادابرا. فأغدو طليقة لبعض الوقت. سرعان ما تحاصرني مرّة أخرى. شبيهتي عزيزة. كانت عنيدة مثلي. تؤمن بالسحر وتُعمله باحترافية عالية. هكذا كنتُ أعتقد. لكنّه لم يكن أبدا سحرا. بل كان شيئا أكثر قوّة وتأثيرا. السّحر يصيب الضعفاء، وهشاش النفوس والمنكسرين.

لم أكن قطّ هكذا. طوال حياتي كنتُ قويّة طموحة. لا آبه بمن يطبّلون من حولي، بل لم أكن أسمعهم. لطالما قالوا عنّي أنيّ امرأة من العدم. لم يكن لي أب ولا أم ولا اخوة. امرأة معدمة تعيش وسط الصينيات النحاسية. تمتلأ بطقطقة المطارق. ألم يكن هذا كافيا حتّى أقاوم السّحر وأقهره.

أتذكّر السآحر المخلّص يحدّق إليَّ. يسحبني من ضياعي وتيهي. أنت مختلفة عنهم. أليس هذا ما كان يقصده، وما كان يبثّه في دخيلتي. انّها شريعة السّحر التي انسكبْ في أعماقي. سيّرتني الى رائية عظيمة، تختبئ خلف عالمهم الشفّاف. أبرا كادابرا. كرّرتُها مجدّدا حينما أعتصر رأسي فجأة، وكأنّ شبيهتي جرّبت تعويذة أقوى وأعقد. كانت تحاول اجباري على الكلام بصوت عال، حتّى تفضحني أمام الآدميين والأشباه. في هذه اللّعبة من يتكلّم أوّلا، سينتهي أوّلا. تماما مثل الذي جرى للآدمي الذي راح يهرطق ويثرثر دون توقّف.

تحرّرتُ منها مجددا. أصبحتُ طليقة بعض الوقت. بدتْ التعويذة التي أكرّرها مجدية جدا. فكلّما همستُ بها في داخلي، رمشتْ شبيهتي، وتراجعتْ عن الهجوم. كل الآدميين الذين حولي، كانوا يهترّون كالأجراس من هول الصعقات النفسية التي يرسلها الشبيهون. وفي كلّ لحظة تنفجر شهقة عالية. تتمطّى في أزقّة القصبة، معلنة عن سقوط أحد الآدميين ميّتا.

لكنّ الأغلبية منّا كانوا صامدين، متسلّحين بقوّة السّحر، التي علّمها لنا السّاحر المخلّص. جيوش الأشباه يمتازون بالمكر والخديعة. يحرّضون على الذكريات الأليمة. يمزجونها بشدّة وقع التيه والضياع الذي أصابنا. كانوا يدركون جيّدا ما يعنيه الحبس العملاق الذي نحن فيه. فجأة رنَّ الهاتف في رأسي بشدّة، لم أكن أعرف كيف أوقفُه. كنتُ أريد أن أرفعَ السمّاعة، لأتحدّثَ مع أحدهم، وأقول له أن يرسل لنا المساعدة. زاد الرنين وتشقّق رأسي معه. من أين أرفع السمّاعة؟

تكرّر الصدى وصوته في الأفق. كانتْ شبيهتي تسخر من انكساري. ترثي لحالي. وحدي أنا من يعرف طريق الخلاص. انتابني الكابوس مجدّدا. كنت في صحن المنزل. سمعتُ الهاتف يرنّ. ركضتُ صوبه، متلهفّة للأصوات التي تتسلّقه. لكنّه كان نفسه الصوت القديم. رسالة صوتية مفادها أنّ التيار الكهربائي سيقطع عن حيّ القصبة. انطفأ التلفاز فجأة. لقد نجحتْ شبيهتي الملعونة في اختراقي، والعثور على ذكرياتي الضائعة.

أبرا كادابرا. قلتُها متلعثمة اللّسان. أكاد أسقط على الأرض. انتبهتُ

لنفسي وأنا أجثوا على ركبتيَّ، أرفع يديَّ بتواز صوبها. كم كنتُ ذليلة أمام سطوتها، وكم كانت لعينة قذرة. توقّف الزنين، ووقفتُ مجدّدا على قدميَّ، متشبّثة بروعة الحياة.

كنتُ أفكرّ في أنّ الأمر سيستمرّ طويلا، وسأخضع لها طال الزمن أو قصر. بدوتُ خائفة وأنا أكرّر تعويذة السحر .أبرا كادابرا...أبرا كادابرا. الركض والهروب. هذا الذي ينتظره كلّ الآدميين. ولكن إلى أين؟

أمّا أنا فقد حدّدتُ وجهتي. لقد قالها الساحر المخلّص لي ذات مرّة. قصر الأميرة خدواج العمياء. وحده المكان الذي أستطيع فيه أن أبوح وأن أختفي عن هذا العالم الشفّاف. لن أضيّع الفرصة، حينما تكون سانحة. لا بدّ أن يتحرّك الآدميون حركة جماعية، كأنّهم حمر مستنفرة. فارّين من هذا العذاب النفسي العميق. ولكن متى يحين ذلك؟

انتشر الصوت وصداه مجدّدا. سقط الآدمي الذي كان يقف بجانبي، جثّة هامدة. راح يتخبّط. وفي الجهة المقابلة ابتسمَ شبيهه. للحظة تحرّر وأطلق العنان، لحركته السريعة. قفز قفزات عالية جدّا. انتصر الشّبيه على النسخة الأصليّة، وانتهى الصراع بينهما. بدا الشّبيه المنتصر جذلانًا متّقدا بالرغبة. عيناه تومضان بضوء ساطع. لقد استحقَّ ذلك. البقاء للأقوى.

بعد ذلك تساقط آدميون كثر. كان جيش الشبيهين ينتصر، والآدميون يتراجعون خطوات إلى الخلف. نطقتُ تلك التعويذة عاليا،

حتّى نصمد وقتا أطول. أبرا كادابرا..أبرا كادابرا. وحالما صدحتُ بها عاليا. كرّرها الآدميون. استجمعوا قواهم. تقدّموا إلى الأمام. وحدها هذه التعويذة التي لا يستطيعون عكسها ولا تقليدها. خسرنا عددا كبيرا منَّا. لكنّنا ما زلنا نقاوم ونكابد.

على حين غفلة ظهر الغولم في نهاية الشارع. بدا ظلّه يسبقه بمسافة كبيرة، وحجمه ازداد على مكان عليه. كنّا تحته كالأقزام التي تتدافع وتتجاذب. كان وقع خطواته شديدا جدّا. يتغلغل إلى الأذنين بقوّة ثم يغمر كل الجسد، بلمح البصر. توقّفنا عن قول التعويذة على الفور. رنونا إليه فاغرين أفواهنا، خاضعين لسطوته الشاهقة، وظلّه الذي حجب الرؤية كليّا.

حتى الأشباه توقّفوا عن الهجوم. كانوا ينتظرون أن يبارك الغولم ملكوتهم القادم، وكنّا نحن نأمل أن يدفع الظلم عنّا. أليس أنا من أنقذتُه؟ همستُ في داخلي، مبتسمة متفائلة. قال الشبيهون حينها. إنّهم وجدوا شرنقة ناقصة، ولابد أن يكون هو. إنّه الشبيه الأعظم.

لكن إن كانوا على صواب، فأين نسخته الأصليّة؟ هكذا ردّ عليهم الآدميون خديعتهم، وسخروا من غبائهم و سذاجتهم. سجد الشبيهون بين يديه. أعلنوا له الولاء في لحظة خاطفة. وكان ردّهم على الآدميين ثقيلا جدّا. جواب عميق. يكفي أن نتأمّله جيّدا، فأعيد كلّ ما سردتُه الى الخلف. لقد قالوا. إنّ ترْقُو غير مرئية.

لكنّ في إجابتهم هذه مكيدة كبرى، ومراوغة لا مثيل لها. فمن

طبيعة الأشياء أن تتوالد عنها أشياء أخرى بنفس الخصائص والمادة. لقد كان الغولم طينا لازبا، من نفس مادة الآدميين. وترْقُو غير مرئية وشفّافة، من نفس طبيعتهم التكوينية. وهذا ما قاله أحد الآدميين، وقد كشف خديعتهم الكبرى.

لكنّهم لم يستسلموا ولم يخضعوا. أنتم تقتلون بعضكم وترْقُو تحبّ الدماء والقتل. وصفاتكم نابعة منه. أمّا نحن فلا نقتل بعضنا. نحن أرواح شفّافة، لا دماء في عروقنا. والغولم كذلك. إذن نحن منه وهو منّا. وتحوّل الأمر إلى سجال فكري عميق. بين الآدميين والأشباه. أمّا الغولم فقد مدّد ساقيه العظيمتين، وصوّب سحنته الشائهة اتجاهنا، وكأنّه كان مستمتعا بحركتنا النمليّة.

احتدم النّقاش. أخبرتهم بأنّ كلاهما ليس شبيها للآخر. وأنّني رأيتُ ترْقُو في صورتها الحقيقية عند بئر الماء. حينها اعترف كلّ الآدميين بصوت متلاحم واحد، أنّهم كانوا يرونها أيضا في أماكن مختلفة من القصبة. فهدأ الجميع، واصطفّوا كما كانوا أوّل مرّة، وسكن كلّ الكون.

في تلك الهدأة العجيبة. طرقت رأسي فكرة، لا أعرف مصدرها، لقد نزلتْ عليَّ من السماء، مثل الشفاء الخفيّ تماما. لكنّني كنت متأكّدة أنّهم لن يصدّقوها. أخبرتهم أنّ ترْقُو ليست كائنا محسوسا، بل هو معنى رمزي فقط. يشير إلى الوهم العميق، الذي يخالج النفوس فيحاصرها بعذابه. ونسخته الأصليّة هو اليقين السّاطع الذي نبحث عنه جميعا. انّ المعاني انسلختْ من جلودها وانكشفتْ. هكذا قلتُ لهم وأنا أتأمّل حُمرة السماء الغامقة.

الفصْل السَّابع عَشَر

المَلَكُوتْ الجديدْ.

-XVIII-

لقد تندّروا من رأيي. وصفوني بالآدمية المجنونة. أمّا شبيهتي عزيزة. فقد رنوتُ إلى همسها العميق. وهي تكرّر ما أقول. تمرّدتْ على أقرانها. قالتْ لهم. إنّ عزيزة محقّة فيما تقول. أجابوها بصدى متقطّع: «الآدميون لا يعرفون شيئا عن الحقيقة». لكنّها تشبّتْ برأيها. قالت مستنكرة: «عزيزة لا تشبههم. نصفها شفّاف ونصفها آدميّ».

لا أعرف إن كان تمويها منها أم أنّها اقتنعتْ بما قلتُه وانتصرت لي. لقد رسمتْ ابتسامة على وجهها الهلامي. توقّفت عن ممارسة قواها الخفيّة نحوي. ظهرتْ شبيهتي بشكلها الجديد. هادئة. محاذرة. مشرعة ذراعيها للعراء الباهر. لهجتْ بذكري باقتضاب: «عزيزة يروق لي اسمك». حجبتْ غلالة فكرها. أرغمتني على الالتحام بها. وكأنّها كانت تبتكر حيلة جديدة. في تلك الهدنة القصيرة، أصابني الخمول

وشعرتُ بدوار كثيف، يلتفّ بي. يغلّف حركتي البطيئة جدّا.

حينما التقتْ نظراتي بها في أوّل مرّة، فقدتُ الاحساس بالزمن. انخفضتْ نبضات قلبي. اجتاحني سكون مهول. أليس ظهور الشّبيه علامة للموت الفاجع، وانتزاع للروح من أقاصيها كما تُقتلع أشجار البلوط العملاقة من الأرض. أليسَ الشّبيه انسلاخ الآخر منّا، وهروبه من الحديث الداخلي الذي يمارسه كلّ الآدميين. الآخر هو صوت النقيض. هو سرّ الوجود وشريعة الربّ التي ركّبها فينا.

كلّ الأشباه رضخوا لإشارة قائدهم. أنهوا الخصومة النّفسية معنا. كانوا حينها يهتزّون يمينا وشمالا. يحرّكون رؤوسهم وأجسادهم، ويثبّتون أرجلهم على الأرض. وكأنّهم يغنّون موّال الصمت والفراغ.

من صفّنا. تقدّم آدمي بضع خطوات. راح يعوي بشدّة. يردّد تعويذة عتيقة: «أُوْ أُوْ أُوْ» كأنّه ينصبّ نفسه قائدا جديدا لجنس الآدميين. انصعنا خلفه نردّد تعويذة أُوْ. صدحتْ القصبة بالصوت وصداه. فانغمسنا في رغبة محمومة لا خلاص منها.

انبثقتْ بؤرة الضوء الأبيض، من الحمرة المتآكلة. ازداد حجمها مع مرور الوقت. كبّلتنا هذه التعويذة الملعونة. استثارتْ أدراننا القديمة. حجبتْ الرؤية عنّا. بعد وقت قصير أفقنا على صوت الرصاص، الذي كان يخترق أجسادنا الطريّة. تعرّضنا إلى هجوم عنيف من العسكر، ولكنّنا لم نصب بأيّ أذى. لم نكن نعرف ما الذي جعلنا هكذا. كنّا نهتزّ في الهواء. نتراقص كالدّمى الخشبية، وكأنّنا معلّقين بخيوط من الأعلى.

كان الغولم في ذلك الوقت، يحرّك أطرافه بتناسق. يساير حركتنا الراقصة بلذّة شديدة. بدا ساخرا من تصارعنا مع الحياة، غير آبه بالمعركة التي نشبتْ. تحوّلتْ الساحة إلى مسرح للدمى الخشبية الراقصة. كنتُ في تلك اللّحظة قد اكتشفتُ شيئا جديدا، في تركيبة الأشباه. وهي أنّهم يتنكّرون بأقنعة أرواحنا كي يكتسبوا ألقا وقوّة مضاعفة.

الأشباه ليسوا كالآدميين، ولن يكونوا أبدا كائنات مطابقة. لأنّ قانون الخلق لا يسمح بذلك. الانعكاس هو من أوجدهم. بحثنا المتواصل عن من يشبهنا جعلهم يولدون. يخرجون إلى الحياة ويزاحموننا عليها. أخبرونا أنّهم يستحقّون الحياة أكثر منّا، وسيقاتلون من أجلها إن اقتضى الأمر. اصطفّوا على شكل مرآة طويلة جدّا. احتجزوا أنفاسنا المكتومة. عزفوا على أوتار الروح.

كنّا نرى ملامحنا عابسة مصفرّة. نصدّق بأنّنا وحيدون، ليس هناك سوانا. فاغرين أفواهنا، مستعدّين للرحيل إلى الأبد. الأمر لا يعدو كونه تناسخ مثير، أو تشوّه لجوهر الرّوح. سرعان ما تشوّش المرآة كبثّ التلفاز تماما، ويعود الأشباه كما ألفيتُهم أوّل مرّة.

حالما انتهى مفعول التعويذة. قال أحد الآدميين إنّ السّاحر المخلّص هو من صنع الغولم، من الطين ونفخ فيه الروح. وكان يقسم أنّه رآه في يوم من الأيّام يسحب جثّة متصلبّة، في أحد الأزقّة. أدخلها إلى منزل مهجور.

سمعَه في الثلث الأخير من الليل، يقرأ عليه تعويذات مخيفة. يؤدي مراسيم البعث في سريّة تامة. أردف أنّه لم يرَ التحوّل بعينه، ولكنّه أدركه بإحساسه المتوقّد، وشكوكه اتّجاه تصرفات السآحر المخلّص المريبة. نفى آدمي آخر كلامه. اتّهمه بالتلفيق والكذب، لأنّه كان يعرف الغولم جيّدا. على حدّ زعمه.

سردَ علينا قصّته قائلا: «قبل سنوات كان هناك رجل مجهول، يعيش في القصبة العالية، وكان قد أغرم بآدمية من أصل يهودي. فعل من أجلها كلّ شيء، حتّى تبادله عشقه وشغفه. لكنّها رفضته وقابلتْ طلبه بالسخرية، لأنّه كان قبيح المنظر. قصير القامة. اعتزل المدينة و الحياة. مكث يقرأ كتب الكيمياء والفلسفة القديمة، وقد اكتشف معادلة خارقة، حوّلته إلى وحش طيني. إخفاقه في الحبّ هو من حوّله إلى وحش.

في فجاءة دمدم الغولم وثار. أخذ يتخبّط يمينا وشمالا فأصاب الصفوف. ركض صوب حواجز العسكر فدمّرها. حاول القفز عاليا خلف الحواجز، لكنّه ارتطم بزجاج شفاف. حاول الفرار من هذا العالم. بعدما فتنته الأنوار المتدفقّة. استولتْ على مكامنه. أراد الخلاص من عبثيّة الأشياء. من فوضى الأصوات المتلاحمة، لكنّه لم يقدر. لقد صرتُ رائية مستكشفة. أحدّق إلى كلّ شيء دفعة واحدة. أقارنها مع بعضها. واستتر خلف كلّ شيء. دون أن أغيب عن العيون.

انتشر الذعر بين الآدميين والأشباه. توزّعوا عبر الممرّات الضيّقة كالجرذان الفارة. أمّا أنا فوثبتُ منبهرة بالأضواء الكثيفة، التي انبثقتْ

من ذاك العالم المجهول. شعرتُ بأنّي أنتمي إليهم. أريد أن أحلّق صوبهم، لكنّي مكبّلة سجينة. أين أنا ؟ تراءى لي في الأفق البعيد رجل وامرأة، يمسكان يدي بعضهما. أحسستُ أنّهما والديَّ اللّذان لم أقابلهما قط في حياتي. أين هم الآن؟

اصطفّت الشاحنات العسكريّة والمدافع والرشاّشات الآلية. حلّقت الطائرات كحشرات صغيرة فوق رأس الغولم. كانوا مستعديّن منذ وقت طويل، لهذه اللّحظة المرعبة. لكنّ ذلك لم يؤثّر فيه، لأنّ جسمه كان يتحرّك كالهيولى الطريّة، التي تتمدّد وتتقلّص. قيل إنّ الغولم قد خُلق جسدا لا روح فيه، وإنّه تشكّل من غبار، ثمّ أصبح عجينة عديمة الشكل. وفي المرحلة الثالثة تشكلتْ أطرافه، ثمّ غرستْ فيه الرّوح. ثمّ استمرّ في النمو، حتىّ أوشك على تدمير العالم، لولا المواويل السّحرية الدّافئة، التي غنّاها العرّافون القدامى.

خلف حواجز العسكر. رأيتُ الملايين من البشر العراة مصطفّين في ساحة عظيمة، عدد غير متناهي منهم، كانوا جاثمين على الأرض. يصلّون للربّ بهدوء منقطع النظير. لم أعرف لحظتَها إن كان ذلك هو العالم الحقيقي أم الذي نحن فيه. لقد اختلط كل شيء في رأسي. المؤكّد أنّهم لن يعترفوا بآدميتنا.

صرنا تابعين لأولئك الأشباه، الذين وُلدوا فجأة. العالم الشفّاف يكاد يتداخل مع عالمهم، والغولم في مواجهة شرسة مع الآلات الحديثة. إنّه عصر التحوّل لا محالة. شبيهتي عزيزة ظلّت تحّدق بي زمنا طويلا. تبعتْ حركتي وأنا أتجسّس على تلك المعركة الأسطورية.

والأشباه الآخرون انقضّوا على الآدميين، بدمويّة ووحشيّة. لاحقوهم في الأزقّة والطريق الرئيسي. كانت نهاية مأساوية للآدميين. الصرخة العظمى التي كنتُ أسمعها من لحظة إلى أخرى. كانت علامة على مقتل كلّ آدمي بيد شبيهه.

كان الغولم يتخبّط عشوائيا. لا يفرّق بين أحد. كان في شدّة الغضب. يزداد حجما مع مرور الوقت، حتّى أنّ عنقه اشرأبّت إلى السماء. غطّى قرص الشمس الذي أصبح مشوّها. انقسم إلى فلقتين متشابهتين بنفس اللّون والحجم. وراحا يبتعدان عن بعض ببطء شديد.

أمّا شبيهتي فقد جنّ جنونها في لحظة خاطفة. ركضتْ صوبي وعينيها ترميان بالشرر. فررتُ بالسرعة القصوى. كنتُ أتعثّر بالجثث المتعفّنة. أصطدم بالثنائيات الكثيرة، من الآدميين وأشباههم.

الصوت والصدى، كانا يتلاحقان في العراء الباهر. كانت تقول لي شبيهتي: «أريد أن أتحرّر منك» وأقول لها: «أنا التي تريد أن تتخلّص منك» كانت تهمس لي بأنّها، هي النسخة الحقيقية، وما أنا إلاّ شبيهة ملعونة. لقد تسرّب إليّ الشكّ حينها وكدتُ أستسلم.

كانت مثلي ضعيفة منكسرة. تتعثرّ بالجثث. تسقط بين الفينة والأخرى. تقلّدني في كلّ شيء، حتّى في مشاعري و ذاكرتي المهترئة التي انهمرتْ كالشلاّل الغزير من الأعلى. كدتُ أخضع لها، وأتوقّف عن الركض. فما أنا إلا آدميّة ضيّعت ذاكرتها وأعملتْ السّحر. امتازت

بالخديعة والمكر. أمّا شبيهتي فكائنة شفّافة. جاءتْ من خلف المرايا النّاصعة. القلق كبّلني والشكّ أحاطني بالعتمة والضياع.

توغّلتُ إلى داخل القصبة. كانت تتعقّبني بحذر شديد. تختبئ خلف الجدران. تتنطط فوق الأسقف وتطلّ عليَّ منها. كانت وكأنّها تريد أن تبرهن لي بأنّها قادرة على الانقضاض عليّ في أيّ لحظة. بدتْ مستمتعة بتعذيبي. تطاردني ثمّ تتوقّف تلوّح لي. تشدّ مؤخّرة شعرها وتسدله إلى الأمام. كنتُ أرى فوق البنايات، سربا من الطائرات الحربيّة، تناور الغولم ترمي حوله الحبال والشباك، محاولين تكبيله. لكنّه كان يتلاشى كالغبار ثمّ يتشكّل مجّددا.

كانت تتعاقب عليّ الصور تباعا. وأنا أتّجه إلى حي سوق الجمعة بالقصبة السفلى. صور الحمائم والعصافير المغرّدة. وطاولات الباعة وزخم المدينة وضوضائها.

سلكتُ تعاريج ضيّقة، ونفَسي يكاد ينقطع من شدّ الركض. وصلتُ إلى قصر الأميرة خداوج العمياء. كان بابه مشرعا على مصرعيه. دخلتُ إلى الدرب الصغير. كان الجدار موشّى بالرخام المزخرف، كما عهدتُه دائما. لم يهترئ ولم يصبه أيّ تلف. أوصدتُ الباب. انطرحتُ على الأرض أسترجع أنفاسي. ولم يمرّ إلّا وقت قصير، حتى أحسستُ بشبيهتي قادمة في آخر الزنيقة.

كانت تمتطي الريّح. الأزيز وصوت همسها، يغّلفان المكان. التصقتُ بالباب تخدشه بأظافرها. تهمس لي بالخروج: «أعرف أنّك

خلفه.. هيأّ افتحي لي» وقتها ارتميتُ على أقفال الباب الغليظة. أمتنتُها وغلّقتُ كل النوافذ الحديدة الصغيرة في الطابق الثاني. لأوّل مرّة شعرتُ أنيّ مطمئنّة في هذا العالم.

الهدوء والأصوات العذبة التي هبّت من زوايا القصر، كانت رائعة جدّا. صحنه الآسر المزيّن بالأقواس الرخامية، كان يعيدني إلى طفولتي، حينما كنتُ أهرب من قبضة جدّتي. أرادتْ يومها أن نذهب، وكنتُ أريد أن أبقى. كنتُ أودّ أن أمارس نزقي وشقاوتي. تجوّلت في القصر بلهفة وتوق. صعدتُ إلى غرف النوم في الأعلى، ونمتُ وقتا طويلا.

لم أعرف كم استغرق زمن نومي. أفقتُ وقد اختفى همس شبيهتي وصوتها الذي كان يلاحقني. وعبر الكوّة تلصّصت إلى الخارج. كان الزمن كما هو متوقّف. وقت الغروب المتعكّر بالحمرة الغامقة. أمّا شبيهتي فاختفتْ، ولا أعرف أين ذهبت.

في الأفق تراءى لي أحد الأشباه يمتصّ دم آدمي مقتول. ينهشه نهشا. يعض لحمه بشراهة منقطعة. لا شكّ أنّ جميع الآدميين قد قُتلوا. وحينما كنتُ أُعمل تفكيري، في الذي حدث مع الغولم والعسكر. سطع ضوء من تحت باب القبو، كان يومض كالألماس والمعادن البرّاقة. دنوتُ منه. فتحتُ القبو. كان المكان مظلما جدّا.

نزلت السلّم الخشبي إلى الأسفل. الضوء ازداد توهّجا. كنتُ لأوّل مرّة أتمتّع برؤية النور في المنازل، لأنّ الكهرباء انقطعتْ مذ زمن طويل،

والزيت نفد من القناديل. كان السلّم طويلا نوعا ما. اجترته بالسرعة القصوى. خوفا من أن يحدث شيء لم أكن أتوقّعه. دخلتُ الى حجرة صغيرة، أشبه بمخزن. قابلتني تلك المرآة المضيئة، كانت تتلألأ بالجواهر والألماس. تحوطها صناديق كثيرة، ومخطوطات قديمة، ومفاتيح عملاقة. شيء ما أشبه بالكنوز النفيسة جدّا.

استغربتُ من وجود مرآة في المدينة، مع أنّ كل المرايا اختفت منذ زمن. إنّه لأمر مذهل أن تكون المرآة الوحيدة. هكذا همستُ في داخلي، وأنا أتحسسّ سطحها الخرافي، وزواياها المرصّعة بالجواهر. أوّل ما تبادر في ذهني، أن أرى صورتي في المرآة. لعّها كانت الفرصة السانحة الوحيدة. وحينما قابلتُها لم أظهر على سطحها في بادئ الأمر. ولكنّي حينما مكثتُ مستمتعة بسحرها الوهّاج، ومضتْ صورتي فجأة على سطحها.

مرحبا يا عزيزة. هكذا قلتُ كالمجنونة. كنتُ فاتنة، ساحرة الملامح. إنّها المرآة الوحيدة التي جعلتني أبدو بهذه الفتنة والحسن. عانقتُها وقبّلتها. بكيت أمام حضرتها. شهقتُ بالبكاء. قعدتُ أشكو لها ما حدث بكلّ التفاصيل. كانتْ تتلألأ بشدة حينما أتوقّف عن الحكي، وكأنّها كانت تريدني أن أكمل.

سُحرت بها وأدمنتُ مقابلتها. وخلال فترة مكوثي في القصر، لم أكن أحتاج إلى شيء. وجدتُ صناديق الطعام في البرطوز[12]. كما أنّ

12 **البرطوز** وهو عبارة عن غرفة صغيرة عالية البناء يحدد موقعها في البناء عن طريق حساب سقوط أشعة الشمس على المكان فلا تصل

النافورة كانت مملوءة بالماء.

كان القصر عجيبا لدرجة لا تصدّق. وكنتُ في ذلك الزمن السحيق. أطلّ من كلّ كوّات المنزل. علّها تتحرّك عجلة الزمن وأخرج حينها. أتقصّى الأخبار وأستطلع الأمور...

في آخر المطاف لم أطق صبرا. فتحت الباب الخارجي. تسلّلت في الثلث الأخير من الليل. كان الخواء باهرا والسكون قاتلا. وصلتُ إلى ساحة الحصار. وجدتُ كلّ الآدميين قد ماتوا. كنت الوحيدة التي تدبّ على سطح العالم. أمّا الأشباه فقد رأيتُهم يتجوّلون بحريّة تامة. الحواجز كلّها محطّمة، والحصار قد انتهى. كأنّ شيئا لم يحدث. وفي ركن بعيد سمعتُ أهازيج عالية. اقتربت منها. كان هناك حلقة من الأشباه، وداخلها قزم صغير. يحيطون به.

كانوا يردّدون كلمة ملوغ...ملوغ بشدّة. كان القزم يشدّ رأسه ويصرخ. ولمّا توغّلت وسطهم، رأيتُه بأمّ عينيَّ. نعم إنّها ملامح الغولم. لقد تضاءل وتحوّل إلى قزم صغير. بفعل التعويذة التي كانوا يردّدونها. أمّا شبيهتي فلم يبن لها أيّ أثر. اختفت من كلّ المدينة. لم أعد أسمع حسيسها في دخيلتي. استنتجتُ أنّ رؤية صورتي في تلك المرآة العجيبة، كان له دور في ذلك. مشيتُ بينهم عارية، ولم يتعرّض لي أحد بأذى.

أنا الآدميّة الوحيدة التي ما زالت تعيش في هذه المدينة المرعبة.

إليها الشمس مطلقا مما يجعلها رطبة على الدوام، وتستعمل لحفظ اللحم ومختلف المواد الغذائية على شاكلة غرف التبريد الحالية.

رأيت الأشباه بأجسامهم الشفّافة. يعملون بجدّ وإتقان. يرمّمون البنايات. يجمعون الجثث المتعفّنة، وكأنّهم يؤسّسون ملكوتا جديدا.

سطع قرص الشمس، وأرسل أشعته البيضاء النقيّة. عدتُ إلى القصر. أغلقتُ الباب. انزويت إلى القبو. أحدّق في المرآة. وفي شكلي الفاتن المرتسم على سطحها. كان المشهد يتحوّل بين الرمشة والأخرى. إلى مشاهد خيالية، لم ترها عين آدمي من قبل. وكأنّ العالم تحوّل إلى كوّة صغيرة جدّا.